عاتي البركات

رائحة الزعفران

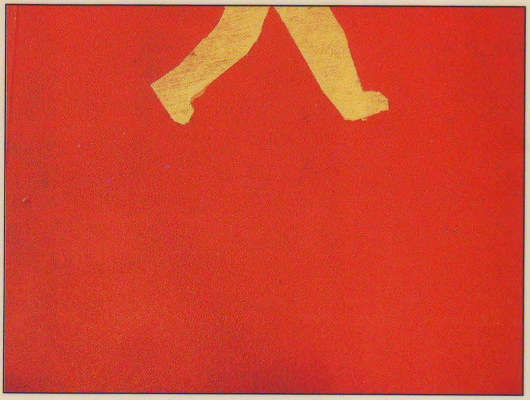

منشورات الجمل

رواية

عاتي البركات

رائحة الزعفران

رواية

منشورات الجمل

صدرت **لعاتي البركات**

١- مدن الثلج (قصص قصيرة) ١٩٩٩
٢- موسم القطاف (قصص قصيرة) ٢٠٠١
٣- رمال الزمن (قصص قصيرة) ٢٠٠٤
٤- نبوءة الغيوم (رواية) ٢٠٠٤
٥- أرصفة اللجوء (شعر) ٢٠٠٦
٦- صاحب الحروف الأربعة (شعر) ٢٠٠٧
٧- برهوت (مجموعة قصصية) ٢٠٠٧
٨- ما وراء الأدلة السرية (مقالات) ٢٠٠٧
٩- الذي ينفرط من المسبحة (شعر) ٢٠٠٨

عاتي البركات: **رائحة الزعفران**، رواية، الطبعة الأولى
كافة حقوق النشر والاقتباس والترجمة
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت - بغداد ٢٠١٠
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag* 2010
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: info@al-kamel.de

الفصل الأول

ذ و ز ح ع	خ ه و ز س	ث د ه و ن	ت ج د ه م	ش ب ج د ل	ر أ ب ج ك	ق غ أ ب ي
ث م ن س ه	ت ل م ن د	ش ك ل م ج	ر ي ك ل ب	ق ط ي ك أ	ظ ح ط ي ص	ض ز ح ط ف
ل ر ش ت ج	ك ق ر ش ب	غ ص ق ر ي	ظ ف ص ق ط	ض ع ف ص ح	ذ س ع ف ز	خ ن س ع و
ق ظ غ أ ي	ص ض ظ غ ط	ف ذ ص ظ ح	ع خ ذ ض ز	س ث خ ذ و	ن ت ث خ ه	م ش ت ث د

الفصل الثاني

حنظله شريٌ كالعسل، فالعسل مرٌّ هنا بجوار الفرات المالح، ودجلة ملك الغرين!

أعرفه قبل أن تنطق باسمه عمتي، وحتى قبل أن تهمس (نجمة) التي مثّلت دور الأم لأحد عشر شهراً، وكادت تبلغ مدة الحمل المعهود للناقة لكنني تآمرت عليها بالانفلات المبرمج في شهر آب اللهاب، نزلت مع أول الرطب، وآخر لحظات باكورة العنب، الذي تُسميه (نجمة) بالحصرم!

آه عليك يا نجمة لفظَتْها شفاهي على حشرجة محرك الطائرة البوينغ التي أوصلها النَفس الأخير إلى مدرج مطار باريس الدولي!

لماذا أخرج دائماً من ورطة النفَس الأخير؟!

ولماذا نَدَبتْ نجمة؟!

هل كانت الرب الذي وحده يستطيع إصلاح العطل الفني؟!

أمْ المعبود الذي لا يُخلِّصني سواه؟!

أمْ المعشوق الذي أشتهيه قبل المغادرة إلى الدرك الذي حتماً هو الأخير؟!

يا ربي. . . . . .

يا نجمة. . . . . .

يا قبل الأول. . . . . .

يا بعد اللا بعد. . . . . .

يا نجمة. . . . . .

أيتها اللبوة المقدسة، لماذا تدفعني محبتك دوماً نحو البعيد مروراً بباريس؟

هل هو تعميد بالديمقراطية البائتة؟!

وكيف أحملها من هناك الهناك وجيوبي مثقوبة باتساع الوطن؟!

الوطن،

الوطن،

آهٍ الوطن، لقد ضيّعني يا نجمة هذا الوطن، وهو يمزِّق بلواه على صبري!

يا نجمة، لقد قضى حاجاته على جبهتي التي سجدت له على الماء، واليابسة!

ها هو يا نجمة يسجد على جبهتي

ب. . . ا. . . . ل. . . . خ. . . . . ر. . . . ا. . . . . ء!

يا نجمة لماذا أرضعْتِني حبه الذي استفحل على خافقي

فمسّني جنونه، وجنون الرئيس الذي دفن نفسه في السرداب الذي تمناه الرئيس الذي مات قبله!

يا نجمة!

يا أم الذي غرّد في سربٍ مجنون مثله!

يا نجمة!

يا هلوسة العشق في ساعات الوله!

يا نجمة!

يا نافثة اليأس!

لماذا لم أتعلم رغماً عنك إشتهاءات الآخرين؟، ولماذا الآخرون في الجوار، وفي اللا جوار، والعمق القومي، والأطراف اللا قومية يتعلم الذين هم أصغر من عمري حين المهد، وحين الآن، وأكبر من عمر اللبوة بعد الآن يعلمون ما وراء أسرار الجنس الذي مازلت أرتعش، ويرتعش الطفل الذي لم يفارقني حين تمرّ خواطري بأطراف الأزقة التي تعلّمت الحروف الأولى من أطراف الأحياء الداخلة حديثاً في حومة العاصمة؟!

لماذا يا نجمة الصغارُ لا يثملون بأقوى أنواع الكحول بينما أنا إلى الآن تنتابني دوخة شرب الشاي، ويعبث بما تحت الجمجمة وجع فراقه الأزلي؟!

يا نجمة!

ها أنا أموت على أطراف الحرام بعد أن ألغت التعديلات

الأخيرة على الدستور (الكانستتيوشن) بلغة الفصاحة، لأنه ليس بدستور الحلال، والحرام!

الربُ لا يقبل بهكذا دستور!

وأنت يا نجمة المقدسة لا ترضين به، والشيوعية أيضاً لا تقبل به!

والقومية المبتسرة لا ترضى به!

لكنهم يا نجمة لا يهتمّون لله، ولا يعترفون بالله، بعد أن غيروا عبادتهم، وقِبلَتَهم!!

عبدوا (أم. إل. أر) الرب الذي صنعوه في معاملهم التي لا تدفع الضرائب للفقراء!

بل تفرض عليهم الإملاق خشية الكفاف!

آه يا نجمة من ارتعاشات هذا الواقع!

وآه من إرتعاشات قلبي حين هوت الطائرة المكتظة باللاجئين في مطار باريس الدولي، وحين شاهدتُ الوجوه النّضرة وهي تتنقّل بين بوّابات المطار، لم تدرِ تلك الأرواح بما حملته أرواحنا من صحراء المخيمات التي ازدهرت بها حدود الوطن بعد حروب الديكتاتور الذي لن يكون الأخير في الأرض المنتفخة بالدماء!

الفصل الثالث

بعد غياب الشمس تتحلق حوله البنات، الجارات، القريبات، المارّات في ليل القرية يتمتعن بجمال عيونه، ونعومة شعره، وتورد خدوده، وسحر ضحكاته وهو ينقل أقدامه من السنة الثالثة إلى الرابعة التي كان يُصرُّ عليها وهو لمّا يزل في الثانية، وحين تمزح معه أخته الكبرى: كم من النساء سيتزوج عندما يكبر؟!

يجيب (أبّعه) يعني أربعة، كان يُصرُّ على ذلك الرقم الذي دغمثه ذات عام في جهات الكون الأربع بحثاً عما فقده في قريته النائية، ومنذ طفولته يعشقه، ويلفظه بتلك الراء المميزة!

وبعد عودة إخوانه من المضيف تكتمل الحلقة التي يجبرها على التصفيق له، وله وحده حين يُنشد (عندي ديج مو مرسي، كاعد يلعب عل الكرسي)!!

وبعدها (باجر عيد ونعيد، وناكل مركة اسعيد، واسعيد كرابتنه، نذبحله دجاجتنه)!

في كل ليلة يجدون على لسانه أهزوجة، أو نشيد، أو نكتة تُجبرهم على تقبيله ووضع الدراهم في جيبه الواحد، لكنه يدفعها في اليوم التالي لإحدى البنات كيما تعلمه شيئاً جديداً!

كانوا يتركون المضيف مبكراً حتى يلتحقوا بمجموعته التي أخذت تكبر لتضم أباه الذي يلفُّه الوقار على مدار العام!

وقبل الرابعة تعلّم القراءة والكتابة بسرعة مدهشة، وحين دخل مدرسة الكرامة الابتدائية كان يعرف ثلاث عمليات حسابية، ويطمح إلى أن يتعلم القِسمة قبل الصف الثاني!

وتعلم، وكان الأول على صفه دوماً حتى أنهى الابتدائية بتفوق مذهل لتصل سمعته قبله إلى متوسطة إبن حيان التي تعلم فيها أنواع الرياضيات، وجرّب التمثيل في عيد الطالب، والمعلم، وحفظ الشعر، وفاز بجوائز الإلقاء، والخطابة!

كانوا ينادونه بالشاعر أحياناً، والأديب، والخطيب، والمحامي، والزعيم، لكونه يجيد كل الأدوار التي تحتاج إلى الفصاحة، والكلام المؤثر!

لكنه رسب في الصف الثالث المتوسط بكل إصرار، وبكامل وعيه، وبتصميم كان غامضاً للوهلة الأولى، وصاعقاً

لكل من عرفه، بيد أنهم أدركوا السبب حين تكلم مع المدير عن صور المعركة التي أكلت فترات برامج الأطفال، وغبار المعارك الذي حال دون مشاهدة أفلام الكارتون، والخطابات الطويلة المحشوة بالأكاذيب التي أزاحت الأفلام والمسلسلات التي كانت تشغل الناس أيام الثورة الرقمية، وتكنولوجيا المعلومات حيث شاشات التلفزة التي دخلت هدايا لكل البيوت حتى يشاهدوا طرق الموت، ومشاهد القيامة!

بدأت أحاديثه تدور همساً بين الأساتذة الذين ينتظرون أدوارهم في الجبهات الأمامية بعد أن أخذت الحرب بالاتساع، والتوابيت بالتكاثر!

وبعد انتقاله للمرحلة الإعدادية أُجبر على استلام دفتر الخدمة العسكرية الذي كان سيفاً مسلطاً على رقبته، فمن رسب أكثر من مرّة في تلك المرحلة سيساق للخدمة ليكون حطباً لجهنم الدنيا، حينها غيّر طرق تفكيره، وبدّل أساليب حديثه، وسجّل نفسه في سجل الصامتين عن رغبة عارمة!

الفصل الرابع

اعتقدوا بأنه قد ولد ميتاً!

الجميع أصروا على ذلك الاعتقاد، القابلة المأذونة، ونساء القرية، والعمات، والخالات، لأن ولادته قد تأخرت بشهرين، وحين أجبرته أيادي القابلة على الخروج لم يُصدر صوتاً، ولا حركة، بيد أنه كان ينبض!

كان المهم أن ترتاح أمه من ذلك الحمل الثقيل الذي كانت تشك بوجوده، وكانت تؤيد رأي طبيبة القرية بأنه حمل كاذب، وأن انتفاخ البطن لم يكُ إلا مرضاً غريباً!

لقد قيّد حركة الأم لما يقرب من السنة، وجعلها تعيش في كوابيس، فعرّضها لشتائم الأب الغاضب دوماً!

لكنه نزل أخيراً بدون مشقة، وهي التي تجاوزت الخمسين من العمر!

نزل فلاح صامتاً كحكيم أخرس، لا يتحرك، ولا يتجاوب للتحريك!

المهم إنه أزاح النقمة بل النقمات التي كانت تلاحق أمه

المسكينة! وبعد ساعات من النبض أيقنت عمته الكبيرة بأنه يتنفس!

وقالت عمته الوسطى بأنه منزعج من هذا المكان، وذلك ما أخّره في مكانه الآمن!

وهو معذورٌ لأن القرية مقبلة على الرحيل بسبب الفيضان الذي وصلت أخباره مع لوري (حجي سلمان) الخشبي! أو كما كانت تسميه العجائز (السرا) الذي نظمت إحدى زوجات أخيه، والمتزوجة حديثاً من ابن عمها الساكن في المنطقة النائية، وهي التي كانت تعيش في مدينة بعيدة، ولا تعرف طباع، وطريقة، ونوايا أهل القرية، وكانت المسكينة تنتظر لوري حجي سلمان عسى أن يحمل لها والدها الذي وعدها بأن لا ينقطع عنها، فكانت تناجي اللوري حين ترى غباره من بعيد (هذا السرا، وبيه عِبريّه وأبو كظيِّمْ جابه ليّه)!

كانت المسكينة تتمنى (أبو كاظم) الذي تركها لشماتة أهل القرية واستراح للعيش في ناحية الشوملي، بعد أن اختار صدقيتها، أي البديلة لها زوجةً لابنه!

فكانت ترد على عجوزها التي زوّجت ابنتها بعيداً حين تشمت بها بأن تقول (هذا السرا مر علينه، ومن أبو كظيِّم غسّلنه ادينه)!

حينها ترد عليها نكاية:

(للشوملي أخذها وطار، ينجمه انطيج الحدار)!

وتشتعل الملاسنات التي تنتصر فيها الكنّة بعد أن تلعن العجوز ببطنها المنفوخ تبن!

وتبكي نجمة، وتنكسر، لكنه كان يتحرك في أحشائها ليأخذ من خاطرها فتفرح سراً إذ لا أحد في القرية يشاركها الفرح!

وحين وضعته عمته الكبرى بين يديها أيقنت من أنه سوف يكون ذا شأن كبير، لأن جبهته العريضة تبشِّر بذلك!

بعد أسبوع أخذ يبتسم بوجه (نجمة) تحديداً لحظة صعوده بين أحضان أمه على مقاعد لوري حجي سلمان كان ذلك في نهاية العام ١٩٦٩، بعد أن غاض الماء، وظهرت اليابسة، وبعد أن ابتلّت عروق الأرض عقب أعوام اليباس!

لم يكن الأول، ولا الأخير، كان ترتيبه التاسع، وكاد أن يكون الأخير لولا أمه التي أحنثت بالعاشر الذي لم تلتفت له العائلة، ربما لكونه قد جاء في زمن الرخاء حيث مواسم الزرع الثلاثة المثمرة، بعد أن نظّف الفيضان أراضيهم بمياهه (الدهلة)!

حين ابتسم ظهرت الشمس من وراء الأفق، وتوقف المطر الذي كان يعيق اللوري من السير الاعتيادي، وحين لمح أبوه ابتسامته الأولى ابتسم له، غير أنه لم يعبأ بجفاف ابتسامته، لأنها جاءت متكلّفة فأغمض عينيه عن قصد تلك المرة!

حين وصل اللوري إلى الرميثة انتصب بطريقة عجيبة عندما مرّ فارس يشبه الشيخ شعلان أبو الجون، وضحك عندما سمع رنين الليرات السبعة على زجاج اللوري الأمامي!

ابتسم وهو يستلم الدور الذي لعبه أبو الجون ذات احتلال!

لم يُطبق أجفانه وهو يدخل إلى أعماق المدينة الضاجة بالباعة المتجولين، والمفترشين الطرقات، والذين يدورون بعرباتهم التي تجرها الحمير، والخيول..... وحتى لحظة اقتحام رائحة الزعفران، والبهارات، وشي الكباب، والتكة إلى خياشيمه... لكن عندما اقتربت أمه من رائحة الفسفاس عاد إلى ديدنه القديم حيث أغلق كل حواسه!

وحين كشف عليه الطبيب الشاب أكثر من الابتسامات، وحاول أن ينطق لكن زمن المعجزات انتهى!!

الفصل الخامس

في يوم واحد تحطمت صور الرئيس الذي حكم أهل العراق بالنار والحديد، حطمها الجيش المهزوم ليُحرِّك الشعب الخائف لإشعال ثورة تجاذبتها الأطراف الخارجية بسرعة البرق!

كل دولة، أو جهة أسبغت عليها أطروحاتها الفكرية، وقامت بأدلجتها حسب قناعاتها هي محاولة دعمها لكن ذلك الدعم تبيّن هشاً خوفاً من أن تؤول النتائج للأطراف الأخرى المتربصة!

لقد تهدّمت القلاع التي رزحت على الأرواح عقوداً كانت أكثر من المعتاد، فانحرفت الثورة عن مجراها حين عزفت الأيادي إيقاعات الفرهود، ولأن الوعي لم يكن حقيقياً انشغل الثوار بالصراعات الساذجة، لتظهر شعارات أثارت حفيظة الدول المهيمنة على العالم لتعيد طبيعة الأشياء إمكانية إبقاء النظام على حاله، ومعاونته على الفتك بأصحاب الرايات السود، وفعلاً وصلت الأوامر بتطويق التمرد،

والقضاء على الثوار وسط صمت الرأي العام العالمي، وتجاهله لمحنة الملايين الذين لا حول لهم ولا قوة!

في يوم ٤ آذار (مارس) كنت واقفاً أُعاتب الفرات أمام جسر السماوة الخشبي الذي التقم أكثر من ٥٠٠ روح أثناء القصف الأمريكي أثناء معركة تحرير الكويت من نظام صدام، وكان أغلب الضحايا من النساء في مقتبل العمر، حيث كُن يغسلن أواني المطبخ، والملابس بعد أن حطمت الطائرات مصادر الطاقة، وقطعت الماء وجميع خطوط الحياة الأخرى!

كان معهن أطفالهن الذين لا يعرفون حقيقة الطائرات المقاتلة!

المهم كنت في ذلك اليوم أكثر ألماً، وأقسى لساناً على الفرات، وكانت مجموعتي حولي تُعاتب كلٌ على طريقته!

بعد ذلك تمشّينا صوب الكازينو على جهة الغربي، وتحدثنا همساً عن مواقف الجيش المهزوم، وتحرك الثوار في الأهوار، والإشارات التي وصلت عن طريق ناحية الفهود جنوب الناصرية، والرسائل التي وصلت من (أبي حسين) في أهوار الجبايش، وأحاديث كثيرة حفزتنا على التحرك!

مكثنا طويلاً في الكازينو وذهب (علي) ليُخبر (ضياء) و(نوفل) بضرورة الاجتماع الأخير والخطير!

طلبت (دومينو) وطلب عماد (طاولي) وتحلّق الآخرون

حولنا، كنا أولاً نلعب بهدوء، ثم تحوّل اللعب إلى ضجيج على الطريقة العراقية، كنا نجلس في الجانب البعيد عن أسماع، وعيون رجال النظام لنتهامس من أجل «التآمر على الملك»، كنا بحاجة إلى (كش ملك) واحد ليتخلص أهل العراق من ذاك الوضع الميؤوس منه!

كنا نلعب على كل الحبال، ونجرب كل الخطط دون أن يُحسّ بنا أحد، وتفرقنا بهدوء لأبقى وحدي أُعاتب الفرات، وأراجع كل الأوراق برويّة!

كانت الساعة السادسة مساءً حين تركوني أقلّب أوراق المستقبل، وأحرق دفاتر الماضي، وأوزّع قصاصات الحاضر على الجيوب الداخلية!

تفاجأت من الحلول المحروقة، واستغربت من لون الفرات القاني، هل كنت الوحيد الذي يُبصر الألوان على حقيقتها في السماوة، بعد أن لفّ رفاقي المُنظّرين لحاف الخوف الأزلي؟!

كل التصرفات «مدغمثة» بالحمق، ومعجونة بالطيش، ومنذورة بالفشل، لأن العراق متمسك بذيل قائمة العالم الاشتراكي!

الجهل الفاحش الذي فرضته كل دوائر الطول والعرض على الشعب، حتّم فشل كل الجهود المسروقة من حقيبة المعلم الجديد!

والقيادة بضاعة مفقودة، وإن وجدت تتلاقفها الأيادي الضخمة التي تدفعها بسرعة إلى المقابر!

لا يمكن لأي مارد الخروج من قمقمنا المُحكم الإغلاق، ولا يمكن لأي نار الصمودَ بوجه شلالات الرأسمالية، ولا حتى البرغماتية تستطيع تقليل الخسائر الفادحة!

قدرٌ محكوم بالضياع التام..

إلى أين تسير يا (فلاح) والظلام يلفّ الليل والنهار، والأفاعي القاتلة، وذوات الرؤوس الثنائية، والضباع، والخنازير، وحتى السعالي تعشعش في الحفرات الممتدة من السرير إلى القبر!

كل الخرائط تبدّلت، وكل الطرق زُرعت بالمسامير، وكل الآبار محكومة بالأرقام السرية، وعلب الطعام مُشفّرة، والوقود تغيّرت مكوناته، والأغطية فقدت قدرتها على كبح رغبات البرد الجامحة، وتكاد تشم رائحة الشواء القادمة من المريخ!

عُد لدارك يا (فلاح) قبل أن تأكلك أنياب المخابرات والمخبرين، فها هو الليل قد دخل، والظلام يجنّ جنونه!

الفصل السادس

عند الحادية عشرة مساءً ذهبتُ كالملسوع إلى الوركاء حيث لم يكن ثمة حظر تجوال تلك الأيام، وإلى الفراش الأثير على قلبي في حدود الواحدة صباحاً وصلت.

حاولت أن ألفّ جسدي بالبطانية لكنه رفض، فتضايقتْ روحي من ثقل الكون، وثقل القرار الأخير متذكِّراً أصحابي الذين أكلتهم الحروب، ورزحت على أحلامهم الأهوار، وعشعشت في عقولهم قرارات المعممين!

إلى أين تنوي القرار يا (فلاح)؟!

ومَن الذي سوف يُطلق العنان لأحلامك وأحلام رفاقك؟!

وماذا تُريد بالتحديد؟!

وهل ستتمكن من الحصول على أقل نسبة مما تصبو إليه عيون أطفالك الرافضين الخروج من عالم الذر؟!

وما المنقذ؟!

ومَن المُخلِّص؟!

وإلى أية أحضان تغذّ الجسد، وأبواب العروبة شاهقة؟!

غفوت أخيراً، ولم أصحُ في الوقت المعتاد، وحين صحوت وجدت إخواني قد ذهبوا إلى أعمالهم، والنساء يتبادلن الأدوار من كنس، وطبخ، ورعاية الماشية، حتى الديوك أغفت بعد أن أكملت واجباتها المقدسة!

أكلت من بقايا إفطارهم وذهبت إلى صديقي في القرية لشرب الشاي!

لم أعد للبيت حتى الواحدة والنصف ظهراً لأجد العائلة تنتظرني من أجل الغداء، فطلبت شاياً وسط استغرابهم!

أريد أن أصحو!

- لا أعتقد بأنك ستعود إلى وعيك، وستقودنا جميعاً لأوهامك (رد الكبير من إخوتي)!

وأردف: ستُضّيع مشيخة أبيك، وستشوه سمعتنا.

- يا أخي ثورة الإمام الحسين ما غيّرت الواقع العراقي، وأنت والجرذان القابعة في الأهوار تغيرونه ببنادقكم الصدئة؟! (قال الأصغر منه)!

وأردف أيضاً تحرككم يا أحبائي الثوار محكوم عليه بالفشل، لأن الأسطول الأميركي لن يسمح لكم بإقامة وضع إسلامي مشابه لإيران، ولا تنسوا أن المعادلة صعبة يا أخي الصغير!١

المهم.. قلت أنا: هل ذهبتم إلى مجلس العزاء في جامع الحجي مجلي في القشلة؟!

وكان قصدي تغيير الموضوع!

- هل تعرفهم (قال أخي الكبير)؟!

- لا.. قلت، لكني أريد الذهاب إلى صديقي علي، وأزمة البنزين، وخوف الناس من الوضع تُجبرهم على ملازمة البيوت!

- وأنت لماذا لا تلازم البيت (قال الصغير)؟!

- لديّ بعض المهمات في القشلة (قلت)!

- الوضع مرتبك، والدوام مُعطّل فلا حاجة لذهابك(قال الكبير)

- صار عمري عشرين سنة مثل عمر جيفارا، ونيرودا، وغاندي، وسعد زغلول - قلت -

- (بس بعدك زعطوط) - قال -!

- (بس بعيونكم زعطوط) - قلت -!

- (إي مو على أساس خطط الأهوار كلها بجيب الصفحة) - قال!

ذهبت إلى غرفتي بصمت، ووضعت محفظتي الصغيرة في حقيبة الرياضة وذهبت للشارع، وماهي إلا دقائق وتأتي سيارتهم خلفي!

صعدت، وقبل أن أسلّم عليهم قلت: (لو الله يهديكم وتقومون وياي، لأن هاي الفرصة ما تتكرر)!

- بابا أنت مجنون - قال أخي الأكبر -

- (هو أكو عاقل بالبلد) - قلت -؟!

إلتفت إليّ الأصغر منه وقال: (أخوك يريد ينظمنه لإيران.. إللي أكلت شبابنه)!!

فرد عليه (هي كل مصايبنة من إيران)!

ذرعت سيارتنا التويوتا كراون طريق الوركاء - سماوة وسط هلوساتنا، وصراعنا، ومناكداتنا، ومكابداتنا، ومماحكاتنا، ولم أشعر بالوقت إلا و(علي) واقف أمام سيارتنا في مدخل شارع التجنيد القديم فوقفت السيارة، وتوقفوا هم حين سمعوا رشق النيران الكثيف القادم من أماكن متفرقة!

- (مو قلت لك أخوك يريد يورّطنه)؟! - قال الكبير -

- (إصبر عليه شويه لأن أخوك متهور وراح يدخل المعمعة... رجاءً لا تتصادم وياه) قال الأصغر!

بينما أنا وعلي نتباحث حول بندقية واحدة كيما نُشعل الصوب الصغير، لأن الصوب الكبير قد تناثرت فيه الأجساد!

قلتُ لهم فجأة (الدنيا مشتعله نار، نرجع للبيت لأن

الوالدة راح يظل بالها عدنه)!

- (ما معقولة نزل عليك العقل فجأة؟!) تسائل الكبير!

- (إنها صحوة المجانين!) قال الأصغر.

وانطلقت سيارتنا تسابق الريح وسط صمتي وذكريات عتيقة قفزت نحو الذاكرة.. فرس أبي الصقلاوية عادت بصورة تويوتا كراون!... وبندقية تحضِّر نفسها للذي حتّمت عليه الظروف ليمثل دور البطل في قرية تعدادها يقارب الألف نسمة على أعلى تقدير!

وعند مضيف السيد (أبوطبيخ) وقف صديقي (مازن) وخلفه عمه مسؤول الحزب في الناحية، وأبوه القيادي في الحزب أيضاً!

نزل أخي الكبير وقبّل أياديهم كما هو متعارف عليه لدى قبائل بني حجيم أمام أحفاد الرسول، وأخذني مازن مسافة غير بعيدة ليسألني عن الأوضاع في السماوة بصراحة.

قلت له بأن الصوب الكبير تحت سيطرة الثوار، والصوب الصغير (القشلة) بدأت فيها المواجهات، وفرهدت الناس الذخيرة الموجودة في الملعب الأولمبي، وسمعت إطلاق نار كثيف في حي الرسالة باتجاه سيطرة السوير!

صدّق مازن كل أكاذيبي، وبعدها عُدنا إلى سيارتنا!

حين وصلنا القرية ترجّلت صوب رفاقي الذين هيأتُهم لليوم الموعود!

وفي غضون نصف ساعة وقفنا على الشارع العام بكامل الأسلحة وسط صراخ أخويّ غير المُجدي نفعاً، بعد أن انسللت منهم إلى الضفة الأخرى عن قناعة تامة!

وبينما نحن نتهيأ لاقتحام مركز الناحية تعطّلت إحدى سياراتنا بعد أن خرجنا من قرية الكرامة فنزلنا وأيدينا على قبضات بنادقنا متحلقين حول (عبد الحسن) الذي يعرف تماماً كيف يُصلِّح البلاتين الذي لذع في غير أوانه!

إذ ذاك اقتربت منا سيارة مسؤول الحزب (الفولكس واكن) الحمراء اللون!

حين شاهد البنادق كبح السائق على الفرامل فأحدثت صوتاً سمعته البيوت القريبة من الشارع الذي بلّله المطر الخفيف!

وماهي إلا دقائق وتلحق بها سياراتنا العتيقة، لكنها كانت الأسرع، وهم الأكثر خوفاً بل رعباً يومها، لنجدها فارغة وسط طريق طيني لنذهب بعدها إلى الناحية وعلى طرفها الجنوبي أطلق (عدنان) خمس اطلاقات أذّنت للزمن الجديد، فردّت علينا رشقة من مقر الفرقة الحزبية، وأخذ الرمي يتداخل في كل أنحاء الناحية لكنها لم تُحدِث خسائر في جهة الثوار، ولا أعضاء الحزب والنظام حتى.. سوى أحد أفراد عصابات الفرهود الذي لقي حتفه في مكتب مدير الناحية!

بعد ذلك وصلتنا أخبار سقوط القشلة بيد الثوار، وسيطرة الثوار على مداخل، ومخارج المحافظة، لكن أعضاء الحزب، ورجال السلطة تقافزوا إلى المدن الأخرى بسهولة، فغفت نواحي وأقضية وقرى السماوة ليلتها الأولى بهدوء وسط وصول ألإخبار والإشاعات بهرب رأس السلطة، وسيطرة الكرد على محافظات الشمال، ولم تبق سوى محافظات الوسط تحت قبضة النظام المرتجف.

كان الحال نفسه في مدن الجنوب والوسط، لكن المواجهات تفاوتت بين محافظة وأخرى!

الفصل السابع

غريبة جداً شاشة (المونتير) لأنها أعادت لي ذلك التأريخ الذي بصقت عليه عام ١٩٩٨ م حين قرأت في النيويورك تايمز خبر محاكمة ضابط المخابرات الأميركية المُكلّف بحماية الرئيس العراقي في ذلك الحين، والذي نسيت اسمه بعد أن قررت أن لا يدخل ذهني أيّ اسم لرئيس يحكم العراق بعد ذلك التأريخ، حاكموه لأنه حاول اغتيال ذلك الرئيس الذي توهّم العالم به، وبوطنيته، وشرفه، وهو الذي أخفى رقم الموساد السري في نخاعه!

كان ذكيّاً لأنه خدع الملايين في زمن يصعب فيه خداع شخصٍ واحدٍ، وليومٍ واحد.

عندما بصقت على التأريخ كنت أعمل محاسباً في محطة بنزين في ولاية ألاباما الأميركية!

لكني الآن أعيش في الفلوجة، والمونتير الذي أثق به وحده بعد عام ١٩٩٨ م يقول بأن اليوم هو الأحد المصادف ٢ تموز عام ٢٠٢٣ م!

لكن المرآة تقول غير ذلك، والفلوجة التي لم يسبق لي التفكير بالعيش فيها، وقد أرعبني محاسب (السوبر ماركت) الذي اشتريت منه علبة تبغي حين بادرني قائلاً بكل رقة - أهلاً وسهلاً بك في مدينة الفلوجة!

حينها تغيّرت ألواني مع صور الأمريكان الأربعة الذين سحلتهم وجوه عراقية، شاهدها العالم بأسره عام ٢٠٠٤ عبر فضائيات ذلك الزمن!

مَن قذف بي في قلب الرعب، ومن وثّق عقلي بخيوط المنجمات؟!

وقبل أن يجتاحني (تسونامي) الرعب الكوني، أمسكتني أيادٍ قوية، وحملتني إلى الحافلة المكيفة حد الإنجماد، حاولت الإفلات لكن كانت هناك أياد تجهز لي إبرة التخدير، حينها أخذت عيوني ترقب المارّة، وتتفحص ناطحات السحاب، لكن قبل أن ينال مني التخدير ويفعل مفعوله، لمحت محطة البنزين الأميركية (الأمكو) التي تُشبه تلك المحطة التي كنت أعمل فيها في ألباما، وبينما النوم يضغط على عيوني، وقبل أن يكوّرني التخدير في عباءته القاتمة، لمحت وجه المحاسبة الأسمر، وشعرها الأشقر، وبعيني اليسرى التي عاندت، وعصت على التخدير، لاحت صورة أخيرة لأعلام أميركية صغيرة من النوع الذي يُعلّق على زجاج السيارات كانت موضوعة أمام المحاسبة عند نهاية الكاونتر!!

الفصل الثامن

حين صهلت فرس أبي حاولت الصهيل فضحك الجميع إلاّنا.. ظللنا (نتكاسر) حتى فرغ (البرّاني) من كل الأرواح، بعدها انسحب أبي إلى المقبرة، وانسللتُ أنا إلى منفاي الأبدي!

وحين تغلّب أبي، عفواً حين تغلّب عزرائيل على أبي شهقت أوداجي لكنّي لم أصهل لا خوفاً من عزرائيل، بل خجلاً من أبي اللائذ خلف عقاله!

أبي الذي خسر عشيرته بطرفة عين تغلّب الليلة الماضية على عزرائيل عن جدارة، واستحقاق، وسيعاود لمّ عشيرته التي امتهنت الرقص على الفجيعة!

ها هو أبي وعشيرته يحصدون الأمنيات المستحيلة بعد استراحتهم الطويلة على مكيفات عزرائيل، وذاك الأكل، وتلك الأنهار من الخمر، واللبن، والليمون، وحتى (الفودكا)!

كان أبي غريباً هذه المرّة، إذا أراد أن يعاقب أحد أفراد عشيرته العائدين معه يقول له فقط: سأحرمك من الموت!

الموت الذي نهرب منه منذ الأزل صار عند أفراد عشيرة أبي حلماً لا يضاهيه حلم!

كان يُحدّث أحفاده، وأبناء العشيرة الصغار عن فضائل الموت، وعن جمال الموت، وعن استحقاقات الذي يلبي نداء ربه سريعاً.

وكان اللعاب يسيل من أفواه العجائز على مشاهد الحور العِين، والوِلدان المخلَّدين، وعن القابليات في النكاح حيث تفوق مفعول (الفياكرا) آلاف المرّات... كان يقول، ويؤكد قوله جمع كبير من أفراد عشيرته العائدين معه من المنتجع، بأنه قد واقع عشرة آلاف حورية في ليلة واحدة، وكنّ من عشرة آلاف مدينة، ويتكلمن عشرة آلاف لغة، لكنهُنَّ في المنتجع يتكلّمن لغةً واحدة لا يعرفها سوى الذي يعيش فيها، وحين يخرج من عالمها ينساها لحين العودة إليها!

ذات ليلة قلت له: يا أبانا لماذا لا تُخرج هؤلاء الغرباء من قريتنا؟

قال: هؤلاء أُناسٌ يتطهرون!

- يتطهرون بماذا يا أبانا؟!

- بدِمائكم!

- وهل دماؤنا رخيصة على أصحاب أنهار الفودكا، والزنجبيل؟!

- إنها فاسدة يا ولد الدنيا!

بعد ذلك لم يُجبْني أبي، فقد عطّلت أمي رمزه السرّي بينما هو نائم!

أطال نومته وكذلك عشيرته المشتركين معه في ذات الرمز.

اختفى بعد أن أخبر والدتي بأن لا تذبح له أضحية، ولا حتى دجاجة، لأن هناك لديه آلاف المزارع، وحقول الدواجن، وحثّها على اللحاق به، لكن إيمانها به لم يكتمل، فبقيت تحت رحمة جنود الاحتلال الذين أذاقوها أنواع العذاب بحثاً عني!!

الفصل التاسع

في مؤخرة السفينة جلستُ أحسب سنوات عمري التي نثرتها على دروب الوطن الخارجية، والداخلية، وأُحصي للمرة التي لن تكون الأخيرة أصحابي الذين رحلوا قسراً عن هذا العالم، جدولتهم على شكل مربعات، ولأنهم كُثر فقد جمعت كل ألف في حرف حسب حروفهم الأبجدية، ثم كررت الحروف على وفق الحاجة لأن بعض الحروف فاقت تضحياتها كل تضحيات حروف العالم!

وأنا ممسك بمسبحة أصدقائي الطويلة ساهمت سكائري الحارة في هطول سحبي، إذ ذاك دنت مني (خولة) أميرة الوجع وسيدة المآسي، وفي يديها مسبحة أُخرى طويلة كشعرها الكستنائي ملظومة برفيقاتها، ورفاقي، فخجلت منها حين لمحتُ الزيادة الواضحة في قائمة خساراتها!

كانت تحسب، فرددت على مسامعها (خل نحسب آنه وياج ياهو اكثر هموم)!!

بكينا، وبكينا، وبكينا، وشاركنا البحر بعد أن ذكّرنا

بالذين ضاقت بهم الأرض بما رحُبت ذات عام من أعوام المنافي... ذكّرنا بمريم ورضيعها، والحبل السرّي الذي طلبته خولة خيطاً لمسبحتها التي أدمنت الزيادات!

- خولة اسمحي لي بمناداتك باسمك بعد أن تعودت على مناداتك بأُم آمنة!

- آمنة شعار عبروا علينا به!

- خولة لماذا تركوا مبادئ آمنة؟!

- لأنهم يا فلاح انحرفوا عن تلك المبادئ!

- حتى أبو آمنة؟!

- لو كنت أستطيع الضحك لضحكت!

- لماذا خذلوا الجماهير، وخدعوا الشهداء، وتاجروا بالمبادئ؟!

- لماذا أضاعوا الطريق الذي خطّته كواكب الشهداء بالأحمر الناري؟!

لماذا كفروا بنا؟!

أخذ فلاح يصرخ بينما ضجيج محركات الباخرة يسخر منه.

وحدها خولة أحست بصراخه، وحدها خولة تستحق صدره الذي ضمّها حين كانت تحاول تخفيف جحيمه!

اقتربت خولة وطوّقته بمسبحتها، وطوّقها برفاقه الذين

خدعهم زوجها قبل أن يخدعها هي ويتزوج من إحدى مراهقات مكتبه!

- خولة أ كان عملنا مراهقة سياسية؟!

أقسم بآمنة بنت وهب، وبآمنة الصدر، وبآمنة التي ضيّعنا أبوها، إننا لم نفكّر إلا بالوطن الذي تنكّر لكل الذي نثرناه على دروبه.

آه

هاهاهاهاهاهاهاهاهاهاهاهاهاهاهاها

هاهاهاهاهاهاهاهاهاهاهاهاهاهاهاها

أوجاعنا تبدأ بالألف، وتنتهي به دائماً!

في الطوابق السفلية من الباخرة تسير الأمور بأشكال مختلفة!

مجموعة تلعب الدومينو، وأخرى تتابع التهريج الذي تبثه أقراص ممغنطة، وأخرى تبحث بالبلو توث عن عشّاق، وعاشقات، لكن جسَديْ خولة وفلاح التصقا ببعضهما دون أدنى رغبة، سوى رغبة الموت التحاماً!

لم تشعر به قبل الباخرة، ولم يحس بها كل تلك السنين التي جمعتهما معاً!

كانت من (مربّع) القيادات!

وكان من الملاكات (الكوادر)!

كانت من المناضلات المهووسات بتغيير الكون كله بشهادة البكالوريوس في علم النفس، وكان من الأذرع التي تبني الوطن حاضراً، ومستقبلاً.

لم يخطر في ذهنه أنه يمكن أن تلتفت هي إليه، ولم يتبادر إلى ذهنها أن يكون هو ملاذها الأخير!

لم يُصدِّق فلاح أن تكون خولة الجوهرة، الدرّة خارج حسابات الرفاق!

القلب الذي لم يشابهه قلب، الذي ضمّ كل الرفاق ها هو يسافر وحيداً، مطروداً من الوطن الذي لاك سنواته بلا شفقة!

- أنا مطرودةٌ من رحمة الوطن، ماذا عنك يا فلاح؟!

- أنا حصدتْ تهديداتهم ثلاثة أرباع أفراد عائلتي، فأجبرني الربع الباقي على الرحيل!!!

الفصل العاشر

أيُّ جحيمٍ هذا الذي تعيشين فيه يا بغداد، وأيُّ نشوة هذه التي تنبعث من أشلاء أطفال لا يعرفون شيئاً خارج أسوارك!

بغداد وريثة أحلام (الميوسبوتيميا) كلها إلى يوم اللا يوم بعده، يغفو على ضفة دجلتها ملك الموت في كمبوديا، وخازن النار في نيكاراغوا، وزعيم تورابورا.....

هذا ما نطق به لسان علي السيد هاشم مترجم ملك الموت الذي يحصل على أعلى أجر لمترجم في السنة (مليون دولار) ليس في بغداد، وحدها بل في الجانب الشرقي للمعمورة والغربي أيضاً!

حصل على وظيفته الجديدة بورقة توصية من حزب التأريخ الإسلامي المقرّب جداً من ملك الموت، وكافة أعضائه حجّوا البيت البرغندي ألف مرة خلال الأعوام الثلاثة التي أعقبت العصيان العالمي على الأخلاق، والمبادئ، والأديان، والمُثُل، والقيم، والعادات، والتقاليد!

لم يكن حزب الطين الذي اجتُثّ، حزباً مقرباً من الملائكة، ولا قريباً من القلوب، بل كان حزباً شيزوفرينياً، سادياً، يعمل على أشعة شوفينية بحتة، لذا كان سيئاً حد المقت، وجيثوماً رزح على قلوب العاشقين لتراب بغداد، وكان علي السيد هاشم يكرهه حد الويل، والثبور، وقد قطع آلاف الأميال شمالاً هرباً من حواجزه النهارية، وقيوده الليلية، وحين وصل في بداية الثمانينيات قرر بأن لا يعود وهو يشرب الماء القراح بعد منتصف الكوابيس، لكنه حين عمل مع ملك الموت في كمبوديا أجبره على العودة ليشرب هموم، وأوجاع بغداد دفعة واحدة، كشارب الخمر لأول مرّة، هارباً من أوجاع عصية على الشفاء!

داخ علي السيد هاشم وهو يرى كاتم الصوت ينثر رأس المترجم الذي صرخ ب (لا) وهو يشاهد ولي نعمته يفتح ثقباً في صدر السيدة العراقية المتخصصة بتخفيف متاعب رجال V.I.P !

لقد أخفقت تلك المرّة لتجني على المترجم الذي لم يتسلّم راتبه حتى نهاية السنة وفقاً للعقد الموقّع مع شركة SOS الأميركية!

كان سيده قد طلبه ليترجم لها بينما هو يمارس معها ساديته، ليظن المترجم بأنه يحاول إذلاله!

كان المترجم ينهرها عن غيِّها، لتنهره عن عمالته وهي

عارية تحت ملك الاحتلال!

شتمت المترجم:

- أنتَ أبو العمالة وأمها - قالت -

- أنتِ الحضيض ودونه - قال -

لينطلق الكاتم بجنون معهود، ثاقباً صدرها، وناثراً دماغه على مقاعد المكتب الوثير!

حينها جيء بالمترجم الجديد علي السيد هاشم ليترجم للعمال والمنظفين، تعليمات مسح الزمن بمناديل حريرية، ثم تُسجّل القضية في سجلات الأعمال الإرهابية التي تستهدف المناطق الملوّنة.

بعد ذلك أتصل علي السيد هاشم بمكتب خدمات ألVIP لإرسال أميرة جديدة من أميرات بغداد لتطرب شهريار كمبوديا في الليالي القادمة!

حين ترك عمله ضجّ عليه أهله، ولامه أصحابه، وغضب عليه سيده وتوعده بأن نهايته سوف تكون حمقاء، لكن كاتم الصوت الذي رآه ينثر خصلات الشعر الجميلة، دفعه للخروج من المناطق الملونة ومن العراق أيضاً، فحملته الباخرة إلى دبي لأنها الطريق الوحيد الآمن من بين آلاف الطرق التي تربط العراق بجيرانه!

وبينما هو يخرج علبة تبغه من محفظته النفيسة على متن الباخرة، مازحه فلاح بلغة إنكليزية عالية الإتقان، وكان

مقطعاً من إحدى مسرحيات وليم شكسبير مما سبق أن علق في ذاكرته منذ أيام دراسته في أميركا. . . . فرد عليه بلهجة (أتّلو) أي (عطيل) الذي ترنم بها ذات يوم ممثل إنكليزي مغمور فنال شهرة عالمية!!

وكان الأدب بوابة حديثهم الذي دام ساعات باللغة نفسها لكن عندما قالت إحدى العجائز حين مرّت من أمامهم «أصبح العالم إنكليزياً رغماً على أنوف أصحاب المقوار» عادا الى اللغة الأم فترنّما بأشعارها، ثم أخيراً عرجا على واقعها السياسي ليكشف فلاح عُشر ما يملك من حقائق مما حرّك علي السيد هاشم لفتح بنك معلوماته على مصراعيه، لينهل منه فلاح حتى لا يعود مجدداً إلى واقع بغداد الذي لا تغيره حتى خلطات ملائكة الرحمة!

اتضح له عند الغداء أن علي السيد هاشم من السماوة أيضاً، مدينته الصغيرة التي تملك رجالاً أفذاذاً داست أرجلُهم أنوفاً كثيرة، وجاست أقدامهم محطات بعيدة!

دخّنا معاً أهوال العراق، وصبا الزيت على نيرانهما المشتركة وبصقا على التأريخ، وافترقا إلى الأبد!!

الفصل الحادي العشر

كما تنبأت قبل عشر سنوات وكما رسمت وكما قلت. . . وصل الحزب إلى النقطة الامريكيه وكما أمرت القوى المهيمنة على السرد العالمي حدث الانقلاب على قيادة الحزب التاريخية والمقربة من قلوب الجماهير. . فذابت الشخصية الرمز في بوتقة المصالح الخاصة وذوت الأحلام السياسية وتنافرت القلوب بعد التحام كان من المحتم أن يبقى أبديا!

سار أخيرا اعرق الأحزاب بلا هدف على وفق رغبة واحدة يعلمها اقل السياسيين فهما!

عاد الوضع إلى دوامة الرئيس الأوحد المستبد وما فتيء الأعضاء يهيمون على المصالح الخاصة فدغدغ الترف أرواحهم وانتشت النفوس بالتجوال العالمي

آخر المصطفين في طابور العولمة!

آخر التابعين الطيعين لسياسة القطب الواحد!

آخر الخارجين من رحمة الجماهير!

لذلك استحق اللعنات من قياداته المكبلين بالأسرار القابضين على ماء الوجوه الرافضين إعلان النتيجة!

أولهم نثرت ذراته أمام البوابة الرئيسية لقصر الحاكم!

وثانيهم ذاب في محراب ملاذه الأخير!

وثالثهم جردوه حتى من فحولته!

. . . . . .

. . . . . !

سابقا كانوا يقولون لا اعتراض على حكم الله الآن لا اعتراض على حكم المندوب السامي!

أمين الحزب لعشرين سنه امتلك زمام التصفية فأبعد المرتبطين بمصالح دول الجوار ووصل بالحزب إلى نقطة ما وصلها حزب قبله من حيث حب الجماهير التي قال عنها قائده الأول بأنها (أقوى من الطغاة) هاهو يطرح أرضا في الجولة الأولى!

لم تكن الضربة من الخلف، لكن هذه المرة جاء الطعن من الأمام، ليسقط المحارب الذي اسقط الجميع في كل المراحل. . . السقوط الذي حذر منه وقع فيه والمحاذير التي وجهها للجميع انقلبت ضده!

هل كان عمله سحرا؟

حتى هو لم يدرك، او يستوعب حالته الجديدة كيف

يرتقي بالحزب مرة ثانيه وقد خارت قواه أمام الصدمة الجديدة؟!

وكيف ينقذ المبادئ التي تبعثرت على العواصم؟

لطم جبهته العريضة بيده اليمنى وامسك لحيته باليسرى ثم صرخ ((لو أنني مت قبل الدخول معهم!.. لو أني تبعثرت مع شريك المبادئ والقيم!!

الناس تهرب من موت بغداد وإنا اهرب إليه!

خذني الهي فلا أجد في أفق السنوات القادمة أي حل لهذا الشعب الذي أولانا مصيره!

خذني حبيبي لأني اكره النظر إلى المكائن التي تحصدهم!

أين حازم. علاء. احمد. عزيز. صاحب. عارف. أين أولئك الأفذاذ؟!

آه يا ربي لقد خدعناهم!

في كل بلد لنا ألف قبر من اجل مصالح شعبنا التي خسرها، وخسرناها، وخسرنا وخسرناه))!

ضرب المجلدات برأسه وضرب رأسه بالكتب السياسية التي ما أنقذته من تلك الورطة وهو الحاذق!

بينما هناك في المكتب الوثير الذي أهدته له وزيرة الخارجية الأمريكية يجلس الأمين الجديد يصرخ بوجوه رجاله الذي لا يدري بأنهم يعملون لصالح أعدائه!

لابد أن نصفيه لأنه إذا نطق سنتحول إلى رماد خلال دقائق!

سيارة مفخخة، طلقة قناص، حادث عرضي لا نحتاج إليه ولا يحتاجه الحزب وسيفسد علينا الانتخابات القادمة!

هذا ما قاله الصاعد توا في سلم الدرجات الحزبية بعد أن سحب سيكارا كوبيا من العلبة الفضية الموضوعة على المكتب بذوق رفيع!

دخل كثيرون من الأعضاء الجدد والقدماء والملتحين وحليقي الذقون، المعممين وحاسري الرؤوس وكلهم أيّد قرار الأمين الجديد لكن فلاح الذي دخل من اجله وحده قال. . . سادتي الكرام لدينا قاعدة قروية تقول ((المخصي لا تنجب منه النساء)) وصاحبكم كذلك فاتركوه وشانه فهو أن تكلم اضر نفسه وتاريخه وأضركم واضر الحزب، وهو يعشق الحزب أكثر منكم وسيعاود ترميم الحزب من جديد ان استطاع هذا سبيلا ثم ان موته في هذا الوقت وانتم على أبواب انتخابات سيضركم كثيرا!

أشعل فلاح سيجارته ونفث دخانها في فضاء المكتب وانسحب بهدوء ملحوظ من الحزب والوطن والسياسة!

الفصل الثاني عشر

حين عادت خولة إلى سوق الشيوخ بعد أربعين عاماً وجدته كما هو لم تتغير فيه سوى الوجوه فانسابت في ذلك الماضي!

حاولت تذكر ما فاتها وما نسيته او طغت عليه إحداث العراق الدراماتيكية وتنقلاتها مع زوجها الأول الذي لم تنجب منه والذي طلقها في معسكر الأهواز وتزوج من إيرانية تاركا إياها فريسة لأحزان البعد عن الوطن والأهل الذين صارعوا العادات، والتقاليد، وعاندوا عمها شيخ العشيرة الذي رماهم بالسفه وهم يرسلونها إلى جامعة بغداد حيث التحلل، والثقافة المختلفة عن واقع سوق الشيوخ، والناصرية، والجنوب ها هي تعود إلى مدينتها بعد أن طردها زوجها الثاني الذي أنجبت منه آمنة التي أصبحت سفيرة في رومانيا، وعراق الذي حصل على الماجستير، وبعدها بيوم واحد أضحى عضوا في البرلمان العراقي الأول ثم نائبا في

البرلمان الأخير من المجموعة التي تعمل في البرلمان في سلك الأيدي المرفوعة دوما!

عادت وحيدة بعد ان تزوج شريك نضالها من إحدى مراهقات مكتبه سرا حيث اشترى لها شقة في الأردن واخذ يزورها بانتظام وخولة التي اكتشفت ذلك السر ملت من الوحدة في المملكة الخضراء ولأنها طالما حافظت على قيمها ومبادئها فلم تتوقف ولم تهادن ولم تستسلم لتلك الأوهام التي آمنت بها النفوس المتخاذلة!

الطريق لم ينتهي بعد يا أبا آمنة والعمل الحقيقي ابتدأ الآن فلماذا تضيع الحزب وجماهيره من اجل رغباتك الخاصة تزوج ما شئت أنا لا أمانع لكن استمر في نضالك لأن أوان النضال الآن والماضي لم يكن سوى تمارين ومباراتنا الحقيقية الآن فلا تكن من الخاسرين ولا تهرب من المواجهة!

- لماذا لا تتناقش معي كما السابق هل منعوك؟

- كفى

- لقد انتهت المرحلة وها عدنا إلى الوطن وها نحن نحكم فماذا تريدين يا ابنة الناصرية؟

- صرت تناديني ابنة الناصرية ولولا أهل الناصرية والجنوب الذي أخذت تتنكر له ما وصلت إلى سدة الحكم إذا انتم مثل ما قال هارون الرشيد!

والرؤساء الذين سبقوكم معذورون والنظريات التي طرحتموها ما هي إلا وسائل توصلكم إلى غايتكم الكبرى؟

كم انتم مخادعون؟!

بعد أن عبرتم على الجميع ها انتم تطبقون أسسا جديدة لدكتاتوريات الماضي اجب أيها المناضل اجب أيها المجاهد!

ترك خولة تصرخ وصعد إلى غرفته البعيدة في إحدى قصور الرئيس الذي سبقهم ونام فورا على نسمات التبريد وبعد الصراخ بكت وأغفت على الكرسي إلى أن طلع الصباح وأحدثت إقدامه عزفا جنائزيا واثقا من مسح كل الذكريات واغلب الأوقات الجميلة!

حين نزل مرتديا أجمل بدلاته ومنتشيا بعطره الذي أهداه له السفير الأمريكي الواصل حديثا إلى المملكة الخضراء مر من أمامها بالضبط دون أن يلقي عليها تحية الصباح ثم واصل أيامه اللاحقة بنفس المنوال وسافر إلى دول عديدة دون أن يصحبها معه وبعد سنة كاملة من التجاهل المقرح للقلب رمى عليها يمين الطلاق!

وقتها جمعت حاجياتها وسافرت الى سوق الشيوخ وحيدة منكسرة يائسة محبطة فاستقبلها الأهل بالدموع والأهازيج والصدور الطيبة الصادقة لكن حين أخبرتهم بأمر طلاقها ابتعدوا عنها وبعد أسبوع تدغمثت فيه بدروب

الطفولة ومسحت على رأسها بتراب الناصرية، وكتبت فيه بعض مذكراتها بعد ذلك ودعت ثفل الأهل ورحلت إلى آمنة دون أن تتصل بها، وبعد شروق الشمس صعدت من كراج سوق الشيوخ إلى البصرة وحيدة لا تعرف احدا!

أمطرت سحبها، وشهقت روحها، وتكسرت آمالها، وتحشرجت أنفاسها، وضاقت الدنيا بها وهي تقطع المسافة بين مدينتها التي لم تمنحها سوى أسبوع واحد والبصرة التي لم تطلب منها شيئا وحين نزلت في ساحة سعد في البصرة استأجرت سيارة إلى ميناء أم قصر وهناك اقتطعت تذكرة عادية وحين تحركت الباخرة أغفت هربا من كل الأوجاع!

الفصل الثالث عشر

يقولون بأن الرمل لا يصلح وطنا عفوا اقصد بيتا غير أني دحضت تلك الفكرة على رمال الإرطاوية!

أنزلنا الجنود الأمريكان من الشاحنة التي تأخرت عن الركب حين أجبرتها العاصفة الرملية على الدوران في مساحة واسعة وسط هلوسة السائق الذي احكم غلق زجاج نوافذها وفتح التدفئة على أعلى درجاتها ولم يبال بالأجساد المتخاذفة والعيون المطمورة بالرمال الرطبة!

لم يستجب السائق لأصوات المتوسلين ولم يرف له جفن لمعاناة مائة ادمي قبل ان ينزعوا جلودهم الآدمية ويلبسوا أثواب اللجوء الرملية وأخيراً استسلم الجميع لقدر لجوج وهيمن المصير الغامض عليهم من جديد بعد ان ظنوا بأنهم مغادرين إلى الضفة الأخرى إلى النعيم والكرامة!

لكن حين نفد وقود الشاحنة فتح الباب ونزل بيد انه عاد وأغلق الباب وغفا هذا ما قاله احد المتسلقين قمرة القيادة

وبعد عشرة ساعات انجلت الغمة فصعد يلقي نظرة رحيمة وعاد إلى أماكن جانبية ليخرج وقوداً وأكياسا مملوءة بأشياء تؤكل وبعض قناني الماء.

كنا آنذاك في منتهى الرحمة والوطنية والإنسانية فتقاسمنا كل شيء بالتساوي!

وحين رفع صوت مسجل السيارة بأغنية صاخبة حزرنا أننا سوف نواصل التيه في عالمنا الجديد وأخيراً وصلنا الى منطقة تدعى النعيرية عند الساعة الثانية صباحا فأدخلونا في سياج لا يحوي اية خيمة حتى الصباح!

لا شيء نشعله لكن كل الأشياء تشعلنا كنت البس حينها ملابس صيفية دشداشة وسترة ويشماغ يسخر منه برد الصحراء ويشمت به الليل.

تذكرت طفولتي فذكرتني بالحفرة التي كنت اجلس فيها يوم كنت أرعى أغنام جدتي حيث كنت أحتمي بها من البرد، ومباشرة بدأت اهيل التراب على جوانب الأرض فحفرت بيتا لشخص واحد!

فكرت أولا بان اجعل بيتي طوليا لأنام واقفا او بالعرض لأتمدد فيه لكنني قررت أخيرا النوم جلوسا حتى أعيد الرمال إلى جسدي الباحث عن حنان الرمل، وفي النهاية غطيت وجهي وراسي كله وسط استغراب الجميع!

شعرت بحرارة الرمل ودفء الطبقة التحتية فعذرت الذين ارتاحت فرائصهم تحت الأديم، وغفوت للحظات بيد أني لم انم إلى أن طلعت الشمس وبدأ توزيع زاد الصباح الذي خلا من البطانيات!

تسلمت ثلاث سكائر واشتريت ثلاث أخرى من غير المدخنين بنصف وجبة الإفطار وأعطاني أحد الطيبين سكائره الثلاثة من دون مقابل، وأكرمني الموزع بالعلبة الفارغة لأُدخن أول نصف سيكارة خارج حدود الوطن متذكرا النملة العاقلة!

بعد ذلك قامت مجموعة على شكل حلقة بالحديث عن آخر الأوضاع السياسية وتجمع آخرون من اجل اللطم ولا أعرف من أين حصلوا على كرة قدم ليركض الجميع ورائها تاركين اللطم وأحاديث السياسة إلى أن جاءت وجبة الغداء التي دخنت وراءها بقايا الوطن!

عند الثالثة عصرا جاءت الشاحنات كيما تنقل الجميع الى المجمعة، وهناك بدأت جلسات التحقيق الطويلة والتي تنتهي دائما بوجبة متأخرة من الأكل المختلف عن الذي نأكله في المجمعات المكشوفة!

ثلاثة أيام قضيناها بعد التحقيق في مخيم بلا بطانيات حيث كنا نتدفأ على قطع الفسفور التي نجدها في أكياس الأكل من أجل صنع الشاي وفي اليوم الرابع نقلونا إلى

معسكر الارطاوية، او بمعنى أدق معتقل الإرطاوية الذي لم نكتشفه حتى نزلت الشاحنات في واديه فكنت أقول لنفسي هذه هي نهايتك لن تخرجي من هذا الفخ أبدا ولن تفلح كل الأدعية الموروثة والمستحدثة في إنقاذك من هذا المعتقل!

هصرت روحي تقسيماته!

كان المعتقل يتكون من قسمين الأول داخلي يتألف من ٢٤ شبكا مربعا يتسع لألف معتقل وكل شبك عليه ثلاثة أسوار الأول لجميع الاشباك والثاني والثالث يحيطان به من الجهات الأربعة ويحرسه أربعة جنود وله قفلان كبيران وفيه مطبخ مجهز للطبخ الجماعي، وحمامات ودورات مياه مشتركة عددها ٢٠ وهي من الألمنيوم مكشوفة السقوف وما تحت الأبواب!

أما القسم الثاني فخارجي يتكون من العدد نفسه وبالتصميم نفسه وبين القسمين مركز خدمات صحية أولية وخارج الاشباك يكون معسكر القيادة وفيه ثلاثة أشباك للذين يعملون مع قيادة المعسكر من المعتقلين أصحاب المهن والهوايات والقدرات الفذة وتسمى تلك الاشباك بالنموذجية وهؤلاء يخرجون للأسواق إلى الارطاوية وإمارة الزلفي ويأكلون أفضل الأنواع ولديهم الكثير من البطانيات اليابانية والكورية الصنع وكل واحد منهم او اثنين في خيمة حسب ذوقه وعلى راحته!

لا كما نقتسم نحن الثمانية أفراد والعشرة خيمة لا تتسع إلا لأربعة!

كان جماعة الاشباك النموذجية يتمشون إلى المستشفى وقتما يشاؤون بينما نحن ننتظر من أسبوع إلى أسبوعين!

الفصل الرابع عشر

في ساعات الليل المتأخرة هبطت الطائرة الفرنسية نفسها التي أقلعت بنا من مطار الظهران الدولي شرقي المملكة العربية السعودية قبل ثلاثة أيام وتعطلت الرحلة والمحركات نكاية بنا نحن الأربعمائة وأربعة والتسعين لاجئا المقبولين في نظام الهجرة الأمريكي!

كانت الساعة تشير إلى الرابعة صباحا حيث شاهدت ناطحات الصباح فلم اصدق عيني، لأن المخيمات التي طحنت أحلامي أعاقت اكتمال الصور الجميلة في نصف العمر المرتبك. . .

وضعونا كل أربعة في غرفة من غرف الفندق الذي لم أكلف نفسي بمعرفة اسمه فنمنا دون مشاكل ومن دون اختلاف وكنت المتمدد على سجادة الغرفة دون غطاء. . وعند التاسعة طرق الباب ليطلبوني باللغة الانكليزية: (فلاه هسن سلتان) لبيت طلبهم على ضوء إلمامي البسيط باللغة الانكليزية وحملت حقيبتي وسرت دون إفطار إلى مطار FG

كينيدي ومن هناك حلقت بنا حيث التحقت بنا مجموعة من ستة لاجئين كانوا معي في الطائرة لم أكن قد التقيتهم من قبل بضمنهم شاب طويل كان يعمل مترجما مع ضباط الهجرة الأمريكان اسمه حيدر أمرنا جميعا برفع اللاصق الذي ثبتوه على صدورنا لكون المسافرين اخذوا ينظرون إلينا بفضول انذر بجرح مشاعرنا المستيقظة منذ ثلاثة أيام!

قال حيدر بأننا نتجه إلى مدينة بتسبرغ في ولاية بنسلفانيا وفعلا وصلنا في حدود الحادية عشرة صباحا ؛ وهناك وبعد وصولنا بدقائق طلبوا منا المشي بسرعة إلى البوابة A38 البعيدة حيث تنتظرنا طائرة من الحجم الصغير وكان مجموعنا مع المضيف الواحد والكابتن والمساعد تسعة وعشرين شخصا، ربطنا الأحزمة وحلقت بنا الطائرة في يوم مشمس من أيام الخريف كانت الأرض راعفة والماء صافيا، والقصور بلورية، ونصف ساعة من أحلام اليقظة لم أتكلم فيها مع احد محاولا الإمساك بكل ثانية عل المشاهد الصحراوية تتزحزح من على شرفات إحداقي!

هناك وفي بوابة المطار الصغير كانت بانتظارنا حافلة حديثة حملتنا والحقائب الى شقتين ضمتني إحداهما وثلاثة آخرين وضمت الثانية المترجم حيدر وأربعة من مدينة البصرة!

في الشقة وجدنا ما نعرف من الأكل وما لم نعرف

وأنواع من العصائر وأنواعا مختلفة من الفاكهة لكننا لم نلتفت لشيء اللهم إلا الماء كنت بحاجة الى نوم عميق بلا كوابيس فطلبت من رفاقي ان لا يزعج بعضنا البعض حتى نستعد لأيام المنفى التي لا يمكن أن تكون يسيرة مطلقا!

لم اصح حتى الثامنة من صباح اليوم التالي وحين صحوت لم اعرف رفاق الرحلة بعد ان حلقوا اللحى وخففوا الشوارب ولبسوا آخر الموديلات من الملابس ووضعوا المستحضرات وباقي الدهون على فروات رؤوسهم فنفضوا واقع المخيمات برمية دعبل!

لم اذهب إلى الحمام بل غسلت وجهي ويدي فقط وجلست معهم على المائدة العامرة بأشياء لم تعتد عليها نفسي. . .

المهم أننا تناولنا إفطارنا من هذا وذاك وشربنا الشاي وبينما نحن ننتقل الى غرفة الجلوس طرق الباب وإذا بعائلة أمريكية تحمل كعكة ذات طوابق مثل التي نراها في الأفلام. . كان الجميع يلهج بكلمة ول كم welcome نحن وهم. الزوجة غاية في الأناقة والزوج أشقر ضخم وسيم وأبنائهم الثلاثة أكبرهم في الجامعة يدرس الطب والثاني في الإعدادية ويلعب في فريق المدينة لكرة السلة والثالث في المتوسطة جسمه يشي بانتظامه في فريق المصارعة!

كنا نتكلم معهم بالكلمات العادية، والإشارات ولغة

الجسد الى ان جاء حيدر ليفك طلاسمهم وأسرارنا ويجعل اليوم أجمل من الأيام التي سبقته!

وفي اليوم التالي ساعدونا على استحصال الهويات ورقم الضمان الاجتماعي وبعده سجلونا من جديد في مدرسة تعلم اللغة الانكليزية مما طور إمكانيات حديثنا وسهل لنا الولوج الى مدينة (ابري) الجميل!

الفصل الخامس عشر

لم ترق لي (ابري) ولا حتى بنسلفانيا لذلك رحلت عنها بعد شهر من الهدوء والراحة قاصدا مدينة صناعة السيارات دون ان اعرف أحدا فيها بعد أن ارتجف أصحابي القدامى من خطواتي المتعثرة ومن محطة (ابري) انتقلت ومن دون توقف إلى ديترويت كبرى مدن ولاية ميشيغان الشمالية والتي لا يفصلها عن كندا إلا نهر صغير اجتزته مرات عدة عن طريق الجسر العالي ومرة واحدة عن طريق النفق!

وحين وصلت إلى ديترويت ومن خلال ملامحي العربية اقترب مني سائق تاكسي يمني الأصل واللهجة والطباع . .

سأل عن وجهتي فقلت لا اعلم!

- كيف لا تعلم يا أخي؟!

- أنا قادم حديثا إلى أمريكا وسمعت بان في ديترويت جالية عربية فقدمت!

- ولا تعرف أحدا هنا؟

- اعرف الكثيرين ولكني لا أريد اختبارهم!

- تفضل معي إلى بيتي يا أخي!

- أشكرك فقط أوصلني إلى فندق بسيط يكون قريبا من الجالية العراقية!

- الجالية العراقية المسيحية أم المسلمة؟!

- المسلمة

- هي قريبة جدا من بيتي تفضل يا اخي!

حمل معي حقائبي وذرعت سيارته المسافات لنصل الى القرية العربية في منطقة دكس DIX وهناك أجبرني على الدخول إلى بيته الخشبي المفروش على الطريقة العربية فقدم لي بنفسه قليلا من التمر ومن الدلة التي لم تخمد نارها سقاني قهوته المهيلة ولم يفتر لسانه عن كلمات الترحاب وسط سعادتي الفائقة الحدود!

كان بحثي حين كنت في الرابع العام الإعدادي يحمل عنوان (اليمن حضارة وتاريخا) وقد نلت عليه أعلى درجة من أستاذ التاريخ... وها أنا استفيد من البحث نفسه في مشواري الجديد.

بادرته بالحديث عن مملكة سبا وحدثني عن بلقيس وتكلمنا معا عن سيف بن ذي يزن الى ان حان موعد صلاة المغرب لنذهب إلى الجامع اليمني الكبير الذي بناه عمال شركة فورد اليمنيين الذين يحصلون على أعلى اجر دون شهادات.. والذين ميزهم عن غيرهم هو الصبر على العمل

بصورة مدهشة والعمل المتواصل بلا إجازات وإنتاج فوق المعتاد!

تصافحنا عقب الصلاة ؛ وعرفني بأصحابه بعد ان قدمني بلقب جديد التصق بي عند الجالية اليمنية وهو فلاح العراكي (العراقي) ثم عدنا إلى داره لنجد غرفة الاستقبال تزخر بأنواع الأطباق التي لا اعرفها اليمنية والأمريكية ولم يكن حاضرا سوانا وولده الذي يلبس الزى الأمريكي- شورت وتي شيرت وقد وقف على خدمتنا ولم تفلح محاولاتي في إنقاذه أو إنقاذ أبيه لكي يشاركنا عشائنا!

قال أبو صالح: هذا مندي ؛ أشهر الأكلات اليمنية لحم الضان بالبخار وقد جلبناه من المطعم اليمني لان تحضيرها يحتاج إلى وقت وهذه سلتة وهي أكلة شعبية لدينا وهذه فعصة وتقدم صباحا.. ثم بدا يشرح عن الأكل الأمريكي الذي لم أتناول منه شيئا لكون المندي اعتلى عرش رغباتي.. وبعدها الحلوى وأخيرا الفاكهة بعدها عدنا للحديث عن اليمن والعراق والوضع العربي والإسلام في أمريكا جلسنا بمفردنا بعد ان لبى صالح نداء أصحابه.. وأخيرا نمنا في المكان نفسه دون كوابيس حتى العاشرة.. وحين صحوت لم أجد أبا صالح الذي تبين انه صحا عند الثالثة ليذهب للمحطة حيث مكان وقوف سيارته التي تحمل علامة الأجرة (التاكسي) وبعد ان دخلت حمام الضيوف

الملاصق للاستقبال سمعت حركة.. وحين خرجت بعد نصف ساعة وجدت أبا صالح يجلس أمام مائدة الإفطار ولسانه يهلهل بكل مفرداته الجميلة!

بادرني قائلاً: لقد أخبرت أهلي بان لا يزعجوك حتى تأخذ راحتك بعد ان أتعبناك ليلة البارحة بأكلنا الدسم وأسئلتنا الكثيرة!

- أنا محظوظ بك يا أبا صالح، واشكر الله الذي منّ عليّ بك!

- لم نفعل غير الواجب وهو قليل.. المهم اليوم أختك أم صالح عملت لنا مندي يمني بأيديها للغداء ولكننا بعد الإفطار نذهب إلى مركز العراقيين لكن دون أن تأخذ حاجياتك. سنبقى هناك حتى نصلي الظهر في مركز كربلاء وسأطلعك على جانب من مدينة ديربورن!

ديربورن المدينة الصغيرة التي يتكون سكانها من أكثرية عربية كانت بوابتي نحو ولاية ميشيغان التي عملت في كل اتجاهاتها محاسبا في محطات البنزين المهنة الأسهل بالنسبة للقادمين الجدد والذين يدرسون وبما إني مغرم بالدراسة فقد قدمت أوراقي إلى جامعة ديترويت مرسي، وبقيت أواصل الدراسة والعمل الليلي في محطات البنزين ومع ابي صالح الذي علمني على التخزين أي مضغ القات وعودني على الأكل اليمني وكساني الزي اليمني ذات عيد!

عدنا إلى منزل أبي صالح بعد أن أصبت بالخيبة من الكثير من رفاق اللجوء الذين غيرتهم أمريكا ودولاراتها.. عدت إلى بيت أبي صالح وتركت أحلامي القديمة بالعمل السياسي من خلال الجالية العراقية الكبيرة.. وأكلنا المندي الذي لم أذق أشهى منه في كل الدول التي أبحرت إليها حين حصلت على الجنسية الأمريكية والجواز الأزرق.

كنت ازور أبا صالح حين تسمح لي الظروف وكان يزود سيارته بالوقود من المحطة التي اعمل بها مهما كانت المسافة كان يحرص على ان يسألني أين اعمل؟!

وفي أي مدينة من مدن الولاية التي تفوق الثلاثين ولا يزيد على سؤاله هذا. كان يقترض مني ولا يعيد لي أي دولار يأخذه وأنا بدوري لم أطالبه بشيء ولم أتوقف عن إعطائه وبعد سنتين اتصل بي وقال سأوصلك إلى المحطة دع سيارتك في الكراج وفعلت وصعدت معه لأشم رائحة المندي الزكية وتعشينا في اقرب منتزه وشربنا الشاي في المحطة ليبقى معي حتى الثانية صباحا وبعدها تنحنح وتلعثم فمددت يدي إلى جيبي متوقعا حاجته الى مبلغ من المال لكنه رفع يده.. وقال يا فلاح لدي طلب أرجو أن لا ترفضه!!

- بلا رجاء يا أبا صالح رقبتي قدامك!

وتلعثم وأرتبك

- ما بك يا أخي بالله انطق يا اعز صديق!

- احتاجك غدا الساعة الثالثة عصرا تحضر معي الى - الريل استيت - يعني بائع العقارات- لأني اشتريت بيتا جديدا ولا أثق إلا بك فأريد أن تسجله باسمك لان صالح دون الثامنة عشر وما زال طائشا وأنت صديقي وأخي و. . و. . !

- وهذا الذي جعلك تسهر معي وأنت الذي لا يسهر مطلقا. . يا حيف عليك فقط قل لي تعال غدا وقع على ارواق ترسلني إلى الإعدام والله سأوقع مغمض العينين!

فضمني إلى صدره وبكا كطفل ومسحت دموعه وفرشت له في مكتب مديري الذي تربطني به صداقة جميلة وهو ينام أحيانا في محطة البنزين حين يتخاصم مع صديقته. .أجبرت أبا صالح على النوم لأنه كان مرهقا جدا وكان الجو باردا فنام فعلا حتى الساعة السابعة صباحا حين قدوم (بل) مديري الذي تعرف على أبي صالح وشكره لأنه شرف وسادته ولحافه تلك الليلة وقال له سوف ترضى منك ان عاقبتها بالنوم خارج الدار!

شربنا القهوة التي أعدها أبو صالح بنفسه وتركنا محطة البنزين متوجهين إلى ديربورن وسط استغرابه لأني لا أحب الذهاب إلى تلك المدينة. .

- ساعزمك على باجه عراقية في مطعم خان مرجان

- اسمع كثيرا بالباشا لكني لم أتذوقها!

- باجة ولست باشا يا أبا صالح

- المهم سأكلها معك حتى لو كانت مسموطة

- هل أكلت المسموطة يا أبا صالح؟!

- أكلتها في بيت صديق عراقي كان جار لنا قبل عشرة سنوات وكانت بالباميا وكانت أصعب أكلة دخلت الى معدتي على الإطلاق!

لا عيوني.. الباجة ألذ لان صاحبها الباجه جي وصل من خلالها إلى قلوب الأمريكان ليضمن مستقبله بعد عشرة سنوات كذلك!

وأكلنا الباجة التي قدمها لنا صاحب مطعم خان مرجان بنفسه.. نفسه نفسها التي تمكنت من وزارة الرياضة والشباب بقضها وقضيضها!

وكانت ألذ أكلة عراقية أكلها أبو صالح كما كان يقول لزوجته وصالح وأصحابه!

ذهبنا بعدها إلى بيت أبي صالح لأنام بينما ذهب هو الى عمله وعند الواحدة ظهرا عاد ومعه الكباب العراقي وقناني لبن اربيل من مطعم الكباب العراقي الحديث.

- يا ساتر.. اليوم يومنا عراقي واليوم العراقي يخوف يا أبا صالح!

- لا تخاف يا راجل ماكو أجمل من اليوم العراقي والأكل العراقي!

- ماكو.. أصبحت تتكلم باللهجة العراقية!

- اعشقها عيوني

- لا تسمعك ام صالح!

وضحكنا ثم دقت الساعة الثالثة عصرا

- أوه تأخرنا يا فلاح

- اتصل بهم واطلب عشر دقائق

- اوكي عيوني

وصلنا ووقعت وتسلمت الأوراق ومفتاح البيت الذي لا أعرف أين موقعه بالضبط!

بعد ذلك ذهبنا لمشاهدة البيت الذي كان صغيراً جداً بدون سرداب لكنه في أجمل جزء من كانتن مدينة الأغنياء وببابه كانت أم صالح وصالح يحملان كعكة، ومشروبا غازيا وأوراق كلنكس وملاعق وشوكات!

كان صاحب الدار أبقى الأثاث والديكور والثلاجة والنشافة والطباخ فجلسنا في بيت متكامل..

وبعد أن أكلنا وشربنا تلعثم أبو صالح وهو يقول: هذا هو بيتك ولو بعيد عنا لكني أريدك ترتاح فلقد تعبت كثيراً وعشت لغيرك كل أيامك السابقة انه بيتك من تعبك وشقاك انه بيتك من حلالك واعذرني لأنك لن تفكر بنفسك أبدا

لذلك فكرت أنا بك ومن النقود التي كنت اقترضها منك ولم أزد عليها أي شيء دفعت مقدم البيت وكافة الرسوم يبقى عليك أن تدفع ٥٠٠ دولار شهريا للبنك الذي اشتريته عن طريقه!

حينها بكيت وبكيت على صدره وعشت حتى تغير النظام في ذلك البيت الذي لمني من أوجاع العام قبل أن تتسرب ذراتي إلى قاع اليأس.

علقت صورة أبا صالح في صالته الوحيدة ونقلت صورته معي حين عدت للوطن بعد عشرة أعوام أيضا وعلقتها في المشتمل الذي استأجرته بعد أن طردتني العائلة من البيت الذي بنيته لهم من دموع الغربة!

الفصل السادس عشر

كان يومه الأول بل ساعاته الأولى بعد أن علّق صورة أبا صالح صديقه الرائع ووضع الكتب خلفه، والحاسوب أمامه والوسادة على الأرض الحافية في المشتمل الصغير الذي استأجره من عائلة لا يعرفها ولا يشترك معها في ارتباط حتى بابه كان على الجانب الآخر ولا يسمع لهم حسا، ولا نفسا، ولا يعرف عدد أفرادها، فقد تحصّل عليه عن طريق مكتب عقارات كان موجودا عند ناصية الشارع وقد قال له صاحب المكتب: ليس لك علاقة بعم فهم أناس متعففون ولا يريدون اية علاقة ولا تطرق لهم باب ولا.. ولا... الخ

بلغ فلاح الذروة وفقا لكل تصوراته لأنه يحمل المشاعر نفسها، ولا يحب ان يشفق عليه احد ويكره الأطعمة التي توضع خلف الأبواب أو أمامها ثوابا كانت أم نذراً أم صدقة أم.....

كان كل ما يريده بابا غير قابل للطرق بعد ان تخلت عنه الأيادي التي كان يحسبها لا تتوقف عن طرق أبواب قلبه التي لا تحتاج إلى طرق أصلا!

كل ما كان يشتهيه جريدة يكتشف من خلالها زيف العالم ورغيف خبز واستكان شاي حتى ان كان شايا تستورده وزارة التجارة من موزنبيق بعد أن حصل على حصته التموينية التي قطعتها السلطة السابقة بوشاية من احد أبناء عمومته عن ما كانوا يسمون أهله!

أما الدفاتر فيحصل عليها مجانا من أصدقائه الصغار طلاب المرحة الابتدائية الذين يثير إعجابهم لأنه يظهر في برامج التلفزيون بين الفينة والأخرى بملابسه المتسخة وكلماته الغريبة!

وكان محظوظا لان فرن الصمون يقع في بداية الشارع الذي استأجر فيه، وبجانبه بقالة الحي التي يديرها الحاج سعد والذي يدفع له بصعوبة لأنه دائما يلوك الكرم كما يلوك المدينة تراب الثريا!

وإذا انقطع التيار الكهربائي فبمجرد ما يفتح الشرفة والباب الخلفي حينها يدخل الهواء ويعبعب لاعنا قسوة الأهل والوطن حينها ينتشي بطقوسه الجديدة!

ذلك ما كان يريده بعد أن افرغ جيوبه، ونثر عمره تحت أقدام إخوته العشرة وأخواته الست وزوجاتهم وأزواجهن

وبناتهم وأبنائهم وسينثرها تحت أقدام أحفادهم إذا تحصل عليها لاحقا بعد أن يكتب روايته التي سوف تكشف زيفهم جميعا، وزيف الوطن، وزيف رفاق المسير وبعد أن يعود إلى ديار الغربة التي لن يشعر فيها بالغربة، ولن يعتصره الألم الذي تفاقم عليه في الوطن، وخلف جدران البيت الذي بناه أبوه ورممه هو بعده من عمله الشاق في محطات البنزين في ديترويت المرعبة والاباما!

محطات البنزين التي التقمت خمسة من أصحابه، ومئات العرب الذين تجبرهم ظروفهم على العمل في مركز مدينة ديترويت المهجور منذ عام ١٩٦٧ بعد تلك الحرب الطاحنة بين التجار من جهة وعصابات السود والملونين التي كانت تفرض الإتاوات حينذاك!

لم يتوان عن إرسال كل ما كان يقع في متناول يديه من الحلال الذي تثمره ساعات رعبه خلف الزجاج المقاوم للرصاص كما كان أصحاب المحطات يذكرون، ولم يكن يصدقهم واثبت صديقه حسون بدمه المسفوح في محطة الموبل في ساعات الصباح الأولى أن الزجاج لا يمنع الرصاص، لكن حاجة عائلته وكذلك أقساط دراسته دفعته إلى غض الطرف، ونسيان حسون، وبلواه!

كان يرسل نفقات كل التمثيليات، والمسلسلات التي أجادها أفراد العائلة بإتقان، وكان غالبا ما يبكي حين تصل

مشاهدهم لأعماق التراجيديا، فكم سهر على خبر كسر رجل أمه الذي كلفه والعائلة ألفي دولار أمريكي؟!

وكم تألم على كسر يد أمه الذي كلفهم ثلاثة آلاف دولار؟!

وكم يأس من السرطان الذي غزا أمعاء أخاها الأكبر والذي كلفه عشرة آلاف دولار؟!

وكم ذرف دموعا حين دخل ثلاثة من إخوانه، واثنتان من أخواته المستشفى بعد أن صدمتهم شاحنة وهم عائدون من زيارة العتبات المقدسة وقد كلفهم..... وكلفه عشرين ألف دولار؟!

ودفعه الأمر لإرسال سيارة سوبر بان حديثة أكثر متانة من غيرها لتباع في حدود الميناء بأضعاف سعرها!

وكم خجل وهو يقترض من أبي صالح ومن صاحب محطة البنزين من اجل دفع بدل الخدمة لخمسة من إخوانه استدعتهم السلطة لأداء خدمة الاحتياط والعلم؟!

وقد عمل بلا أجر لستة أشهر، ولولا أبو صالح لتوقف عن الدراسة نهائيا لكنه اقرضه لحين سداده القرض الأول بينما في بداياته هو الذي يقرض أبا صالح والآخرين!

و تلك العملية كلفتهم..... وكلفته احد عشر ألف دولار!

و....و.....و.....و.....

وسقط النظام فكاد يموت من الفرح، وصعد مستوى شوقه إلى أقصاه، فباع كل ما كان يملك وترك دراسته وشحن حاسوبه، وكتبه ليعود إلى الوطن الذي احرقه البعد عنه أولا، والى الأهل الذين ذرف من اجلهم كل ما كان في زوادته من دموع!

وطنه، ووطن حسون المكبل هناك في مقبرة ديترويت!

ولم يجد غرفته بعد أن تزوج أبناء الأبناء فيها وحتى أمه التي كلفته حوادثها الكثير لم تكن هي هي. . .وآه حين لم تجد أمك في الدار؟!

وآه حين تتزور مشاعرها المقدسة؟!

بحث عن أوراقه وكتبه وذكرياته. . . فقالوا بأن زوجة أخيه الجديدة قد أشعلت بها التنور أيام الحصار وشكرته كثيرا لأن أوراقه، وكتبه تشتعل بسرعة لأنها أصلية لا كما الأوراق، والكتب المعادة!

حينها صرخ فلاح: ليست أوراقي وكتبي التي تشتعل بسرعة حتى روحي سهلة الاشتعال، وأحلامي، ومستقبلي، وأمنياتي، وحبيباتي و. .و. .و. . . . . !!

وبعد أن تعبوا هم، وتعب هو ذهبوا كل إلى غرفته ليتمدد وحده في غرفة الاستقبال على ذلك الفراش الوثير الذي تعوّد عليه لاحقا إلى اليوم الذي سحب منه بوشاية من أخيه الأكبر، والذي ضبطه متلبسا بالإفلاس التام!

لتركله أرجل كثيرة كانت كلها قاسية إلا قدمان صغيرتان كانتا تركلانه برقة تامة علم فيما بعد أنها لم تك رقة بل بسبب الضعف ووهن الكبر!!

الفصل السابع عشر

لقد خرب نجاح توأمي لحظات انتظاري كعادته سابقاً في مسلسلات الخراب، ولاحقا في مواقفه الصادمة.. حيث جرجر نجمة الطاعنة بالهموم والأمراض إلى زيارة السيدة زينب كما كان يدّعي وهناك أجّر شقة فخمة بالدين أي (سلفة) في شارع التين المحاذي لمرقد السيدة زينب لحين وصولي من الخارج كما كان يتبجح واستعار هاتفاً نقالا من أصحابه الذين تعرف عليهم عند نواصي الشوارع ليتسنى له الضغط عليّ كنت وقتذاك اسكن فندق ساندیز في إمارة أبوظبي هاربا من وجع الانتظار هناك في ديترويت التي ضغطت على روحي وقطعت الأوكسجين عن قصد لأبيع حصتي في البوت هت سموكرز للذي فرضته علي دروب المنافي صديقا لماعا في بداية المشوار بعد أن سلمته كافة الأوراق، والحسابات لينكرني، وينكر حقوقي التي كانت كل ما املك بعد سنوات العمل الشاق الذي يدريه هو، لكنه تجاهله! المهم أني حجزت بطاقة ذهاب وعودة مفتوحة،

وذهبت إلى أخي وليد الذي هربته من ظلم النظام واستعباده، وقد كنت ملاذا له سابقا لكنه الآن ملاذي أتيته متعبا يأكلني القلق، ويسكن في حواسي الاضطراب طلبت منه أن لا يحدثني عن الماضي لأن قلبي يدرك حوادث الأهل، والوطن وقلت له الأمل على الأبواب ولأني أود أن التقي الجميع بلا صور مسبقة لا أريد أن أرى صوراً لأني سأرى الحقائق، وسوف أعيشها قريبا.

كان لا يصدق ويتصور أني فقدت عقلي لكنه استسلم لرغباتي الغريبة حرصا على أخوتنا الجديدة بعد فراق كاد أن يكون أبدياً. وصلت إليه ليلا ففرحت به وهو الآخر فرح بي، وافترقنا عند فندق ساندیز، ذهب هو لعمله وبعد يومين زارني في الفندق غير أني كرهت زيارته لي واحسّ هو بذلك لأني حدست بأن هاتفه النقال سيجبرني على تمزيق برنامجي، وأجندة أيامي حيث طباعة روايتي عن طريق المجمع الثقافي في أبو ظبي، ولقاءاتي الساحرة بمريم محمد الشيشانية التي تعرفت عليها عن طريق الانترنت، وأسبوع الاصطياف في مدينة العين التي يمتلك فيها صديقي محمد فيلة فاخرة! وحضور أمسيات الأربعاء الثقافية، وزيارة معرض صديقي التشكيلي العراقي البلجيكي حمادي الذي يكور على رأسه جزة صوف، الكثير من المشاريع التي لا يفهما أخي وأصحابه الذين استغربوا من طريقتي في التعاطي

مع الحياة، لكنه رنّ فأجاب وليد وفعلاً كان على الخط صوت أمي الذي أبكى وليد، وأجبره على دفع الموبايل الذي أردت أن أحطمه في تلك اللحظة غير أني أجبت بهدوء ومارست كذب المشاعر وكبحت كل الأحاسيس المضادة لكنني لم اطلب توأمي وحين قالت لي معاك نجاح أعطيت وليداً هاتفه، وقلت له سأسافر إليهم غداً، ولم تنزل دموعي بل سحبت علبة تبغي وجذبت نفسا إلى أعماقي ثم اتصلت بالمطعم الهندي لأطلب غداء لشخصين وسط صمت وليد وهو يمسح دموعه، وبعد الغداء تمشينا على الكورنيش!

الفصل الثامن عشر

بعد ثلاثة أيام من احتلال العراق وسقوط النظام ومن دمشق التي جرجره أخوه لها رغما عنه، وفي يوم ١٢ ابريل ٢٠٠٣ ميلاديا حجز فلاح مقعدا على متن الطائرة الكويتية متوجها إلى الكويت وما هي إلا ساعات وينزل في مطار الكويت وفي يده اليمنى رواية ناصر الذي التقاه في مؤتمرات المعارضة ذات عام!

كان يقرأ فيها للمرة العشرين أحوال ناصر وانجل دون علمه بأن منعماً أحد أبطال الرواية عائد معه على متن الطائرة نفسها برفقة ولديه نبيل وناصر، أبناءه من انجل ثمرة الترحال، والأوجاع، والخداع والخيانة تاركاً ضحيته في لندن تعيش راحتها الأبدية في قبرها الوثير!

وبعد اكتمال إجراءات الدخول إلى العراق جلسوا جميعا في الحافلة المتجهة من العبدلي إلى بوابة سفوان وحين نادى ضابط الجوازات على منعم وبعده نبيل وناصر أيقن فلاح أن

خيوط الرواية التي كتبها ناصر موجودة معه في الحافلة فاقترب من نبيل ليقول له أنا من أخوالك في السماوة!

ثم سأله هل أنت ابن انجل لكن ناصراً نهره وحرك عضلاته المفتولة أمام أنظاره: لا تذكر اسم أمي المرحومة على لسانك!

- (ما اقصد شي عمو.. ثم أن أمك رمز من رموز البلد ولا يمكن أن تمتلكها وحدك)!

ابتعد فلاح عن الخوض في الحديث لكنه أدرك الرواية بحذافيرها وبقيت عيونه تراقب منعم دون ردود أفعال!

كان فلاح يتساءل مع نفسه كيف استطاعت انجل وضع جينات نبيل وناصر الوراثية في صلب منعم وكيف حولت منعم تلك التحويلة الغريبة ٣٦٠ درجة وهل عادا ليكونا ناصر العملاق ونبيل الطاهر ومن الذي مسح على خطايا منعم ومن الذي محا كل سيئاته أهذه حياة أم أنها الآخرة أم هي نتائج الحب الخالدة؟!

أخفى الرواية في حقيبته وحمل أغراضه وترجّل من النقطة التي كان ينتظرهم فيها الجندي البريطاني، وبعدها تاها في العراق الجديد بعد أن رفض العمل مع قوات الاحتلال، ورفض فلاح المناصب الحزبية، والحكومية واعتزل العالم فعاش في القرية مع أمه وإخوانه إلى أن اكتشفه أخوه الأكبر بلا أموال بعد أن اشترى بذكائه أراضي

وعقارات دون علم احد من أهله، كان يود فقط العيش معهم ليتزود من حنانهم لكنهم رموه بالسفه، والتعقيد، ونقصان الرجولة لأنه يرفض الاقتران بالكثير من القريبات والبعيدات العاشقات لخياله الغربي ومستقبله المضمون.

الفصل التاسع عشر

عندما ضاق الخناق أفصحت الروبوتات عن لذاتها السخية فاخذ الوقت يترتب لا شعوريا فأخذت روحي تعزف إيقاعاته متناسية مقتي الذي تتقنه للروتين!

لكن البانورما السماوية دغدغت خيوط روحي الهاربة ما إسار الصداقات، والعلاقات، والروابط الأسرية!

الروبوتات التي دخلت المشتمل الخالي من الأرواح سوى روحي المنفلتة عن قصد محبوك!

أول الروبوتات كان جرس البيت الخارجي الذي تعطل أول يوم دخلت فيه وسط الصالة الصغيرة والتي قررت أن امنحها أحزاني بلا ثمن وعلى جدرانها سأعلق أوجاعي بلا اطر بعد أن تكسرت صورة العائلة وأنا احمل حاجياتي من البيت الكبير!

لم أتعمد كسرها وهي التي لازمتني لخمس عشرة سنة ولم تكن من عادتي معاقبة ذوات الأرواح السائلة والصلبة،

ولم أتخل عن محبة أمي وبقية أفراد العائلة رغم أن صورتهم قد أخذتها زوبعة صغيرة فتلت نفسها عن قصد دون أي مسوغ.. أو ربما لتزيد الطين بله، لان أمي والعائلة شاهدوا صورتهم وهي ترتفع وسط ذهولي، وأنا ارفع أشيائي الثقيلة دون مساعدة من الجالسين في الشرفة يتشمتون بضياعي الثاني!

لم أتخل عن محبتهم رغم سماعي لتعليقة أختي الكبرى بان السماء قد رفعت الصورة لترفع معها الرحمة والبركة من عالم الزنديق الذي يعتبرنا بالدولارات التي كان يرسلها لنا حيث كان ينتقل بين بيوت العاهرات في أمريكا أم العهر!

وحتى حين همست في أذن زوجها المتشبه بالأمريكان حتى قبل أن يعمل منظفا للصحون، والحمامات في مكتب منظمة USA الإنسانية، وحتى حين فهمت همسهم وهو بالتأكيد حمدهم لربهم بأنهم لم يسجلوا العقارات التي كلفتهم بشرائها بأسماء غيرهم!

كانت أمي وكانت عائلتي التي اشعر بالفخر وأنا اقبل أياديهم وأرجلهم، ورؤوسهم إن هم رضوا بذلك، ولم استنكف رغم الشهادات، والجوائز، واللغات والأموال التي تبخرت بين أيديهم وسأستغفر الروبوتات التي كسرت صورتهم!

لكن تعطل الجرس لم يعطل أحلامي، وآمالي بل منحني

السكينة والهدوء الذي كانت روحي ومازالت تحتاجه رغم ذلك حاولت إصلاحه، وزار المشتمل اغرب، وأعجب الكهربائيين لكن ولات حين تصليح، فنصبت جرسا آخر وآخر، وآخر لكن المحاولات لم تلين المواد الصلبة التي يتكون منها الجدار!

عندها أيقنت أن سوف لا يطرق بابي أحد كما لم يسأل عني احد في بيتي الخشبي في أمريكا بعد أن اشترته عائلة يهودية مهاجرة حديثا من روسيا. . وبعد أن رفعت نجمة داوود إلى أعلى نقطة أمكنهم الوصول أليها على السقف المنحني! والذي يختلف جدا عن بيتي هنا في أرورك حيث يتكون من غرفة واحدة وصالة ومطبخ صغير وحمام شرقي خارجي لكن سطحه الواسع كان ينفعني في الصيف حيث النوم الساحر بهوائه الجذاب غير انه يضرني لكونه مكشوفا لكل الجيران لأن سطحه أوطأ السطوح فأحيانا أرمى بالثلج أو بسطل ماء يبلل فراشي!

لم تكن للبيت حديقة بل له (كراج) بالكاد يكفي لدخول سيارتي الصغيرة!

وفيه هاتف ارضي كان يرن علي أحيانا وعندما أجيب يكون الرد أن الرقم خطأ. . !

كان يرن عند منتصف الليل وأوائل الفجر وقبل طلوع الشمس وكلها بالخطأ! لكني تعودت على ذلك ولم أجيب

ليلا لكن في النهار أجيب كيما يتمغط الخناق الذي كان يلفني بحنو ولأيام متواصلة كنت ألازم فيها الدار فأبقى ممداً على السرير لا أطيق فعل شيء لا كتابة ولا قراءة ولا حتى أكل!

والأيام الأخرى كنت اخرج أشعث الرأس بلحية أفغانية لكن بملابس أنيقة رغما عني لأني اشتريتها في ذلك الزمان الباذخ بعلامات تجارية عالمية ولا سيما بنطلونات الجينز!

كنت اركن سيارتي بجانب الفرن بعد أن اشتري خبزا يكفيني لأسبوع كامل وبعد أن اذهب لشراء الصحف والمجلات والكتب الجديدة من المكتبة ثم اجلب الشاي والسكر فأعود لسيارتي لأذهب للمسجد لأصلي صلوات الأسبوع الفائت وبعدها إلى محطة البنزين لاقف أربع أو خمس ساعات اقرأ خلالها كل الصحف وأنا انتظر دوري في تعبئة سيارتي ثم أعود إلى المشتمل الذي لا ينتظرني فيه احد فادخل بسرعة دون أن أرى احد حتى لا اسلم عليه وأضيع وقتي بهذر لا فائدة منه!

كانت ساعات قطع التيار الكهربائي حسب تقسيمهم الجديد تأتي حسب مزاجي وذلك هو الروبوت السابع فحين اشتهي القراءة تأتي وحين أمل تنقطع ليكمل الفانوس أوقاته الرومانسية!

كنت اقرأ نهارا فقط ولعشر ساعات متواصلة ودون ملل،

وكنت أتنقل من تحولات أوفيد إلى قصة الحضارة وانهي بملح غابريل غارسيا ماركيز!

لم يكن يزعجني إلا ضجيج الأطفال في البيوت المتلاصقة فقد كانوا يبكون على أشياء تافهة ويصرخ آبائهم على أمور عادية وتولول أمهاتهم على نسيان إضافة ملح للرز عن طبخ الطعام!

الفصل العشرون

في بوخارست وفي شقة فخمة وسط الحي الدبلوماسي سوف تعيش (خولة) وهناك ستكتب وستقرأ من جديد لتبتعد قليلا عن مآسي السياسة التي لفتها لأربعين سنة!

وستكون (آمنة) أمها، وأبوها، وأستاذها، وكل شيء بالنسبة لها وستطلب من (عراق) أن يزورها وستحاول آمنة التأثير على أبيها من أجل الصلح، وسيبكي عراق على عناد أبويه وربما سيشتري لها الأب الغائب بيتا في بوخارست أسوة بزوجته التي امتلكت بيتا فارهاً بالقرب من السفارة الأمريكية!

وربما يزورها الزوج بعد أن يمل من زوجته المراهقة!

وربما تغفر له كل ذنوبه بحقها!!

كل هذا دار في ذهنها وهي تمسك بصينية الطعام في مطعم الباخرة حيث جلست قبالة البحر وسقطت منها ثفل العبرات فحجبت معالمها الجديدة معانيها الجميلة،

وابتساماتها الساحرة، وضحكتها المميزة، ومشيتها الواثقة و... و... و...

وأخيرا وبعد أن سدت رمقها ببضعة لقيمات وشربت الشاي درجت إلى غرفتها لتتابع هلوسات رواية رب الأشياء الصغيرة الذائعة الصيت!

حاولت العودة إلى الصالة، وممارسة طقوس المسافرين لكن الماضي يحول بينها وبين الحاضر ففتشت في الحقيبة التي دستها أختها الصغيرة في يدها (سمرقند) هربا من الملل وبحثا عن أسرار أختها التي جاءت إلى العالم عقب غيابها الطويل ولم تلتقي بها إلا في ذلك الأسبوع وبينما أصابعها تفتش أخذت أصابع عقلها بالتفتيش عن رموز سمرقند، وضحكاتها، وحنانها، وتشابهها مع أمها الراحلة قبل عشرين سنة إلى مقبرة النجف!

وسمرقند لم تتزوج لكون الوطن يأكل فتيانه دائما ويترك نخلاته شامخات!

وجدت خولة مظروفا من دون عنوان لا إلى أين ولا إلى من، فتحته بسرعة..

يا لله أنها سمرقند تكتب كلمات غاية في العذوبة وأحلاما غاية في البساطة وأشعارا غاية في الروعة أعادت قراءة الرسالة مرات، ومرات ثم قبلتها ونقلتها إلى حقيبتها الصغيرة!

ثم وجدت مظروفا آخر كانت سمرقند قد دست فيه صور خولة أيام الطفولة والمراهقة المكبوتة وأيام زواجها الأول فأخذت وطراً وهي تعيد قراءة الصورة!

بعد ذلك استقطرت خزين المستقبل على ملامح الماضي المراق ثم وجدت سندوتشات متنوعة في كيس محكم الإغلاق وبعض الفاكهة وقنينة مياه غازية وكرزات من النوعية التي تفضلها.. (كيف عرفت أيتها المشاكسة ذوقي ونحن لم نلتقي)..؟!!

بدأت تكرز وبين يديها الصور، وحولها الذكريات، وأمامها الوجوه.. وبين خيوط الذاكرة الصور الحقيقية لأمها وأبيها!

متران بمترين وطنها الجديد، وفيه كل شيء!

حلمت فيه بكل شيء، وصححت أخطاءها، سامحت فيه، وغفرت، وندمت على الوطن الضائع الذي لم يستوعب أحلامها الصغيرة، وذابت أخيراً في النوم دون أن تنظر إلى الساعة!

صحت صباحاً على نداء الباخرة بالتوجه للمطعم حيث وجبة الإفطار، واستغربت من نفسها لأنها تشتهي الأكل وتحلم بأنواع مختلفة من الطعام: أوملت، كانتيننتيل، كورين فلكس وحليب بافولو، سوشي، مندي، فلافل، بسطرمة، كاهي، وحتى الخنكل، وأخيراً سقطت رغباتها

أمام البيض المسلوق، والشوربة، وعصير البرتقال، والجبن، والمربى، وكوب شاي كبير، بينما نظراتها تغازل البحر وحيدة في آخر كراسي المطعم البلاستيكية ولم تكن تعلم بأن فلاحاً يجلس وحيداً أيضاً في مقدمة المطعم يرتدي دشداشة سوداء ليوهم الآخرين بأنه من جيش المهدي كيما يهرب من ملاحقة أصحابه الجادين في قتله لأنه قد تجاوز الخطوط الحُمر!

كانت ترغب في محادثة إنسان، أي إنسان، شرط ان يتميز بالصدق والحرص والمسؤولية!

وكان يشتهي أن يتكلم مع روحا حقيقية بعد أن خابت مساعيه ولأربعة أعوام في إيجادها!

كانت مهيأة للحديث بصورة مختلفة، ومستعدة للجلوس أمام الكاميرات وعلى البث المباشر!

وكان بيقظته الفكرية الكاملة وبالصفاء الذهني الذي لم يصل إليه قبل الآن!

لكنها ذهبت قبل الآخرين، وفي يديها كوب الشاي إلى غرفتها!

وتبعها هو وفي يده كوب شايه أيضا، لكن نظراته متجهة إلى الأسفل دوما!

كان يقرا في كتاب (عصر الظهور) لعلي الكوراني ومشدود إلى موضوعة الكاتب جداً!

وبعد أن قرأ، وفكر، وداخ فر إلى النوم ولم يشعر بالوقت ولم يسمع نداء الباخرة بالتوجه لوجبة الغداء، وهي لم تشعر أيضا بشيء وبعد أن أكلت برغبة عارمة نامت حتى الخامسة عصرا!

الفصل الحادي والعشرون

في فضاءات الدول المجاورة تكاد العطور، والتوابل تحجب ضوء الشمس بينما فضاء العراق لا يكاد يكفي لرائحة الدم!!

كانت الناس تتألم سابقاً حين يموت شابٌ في مقتبل العمر، أو طفل بعمر الورد أو فتاة جميلة أو شيخ عشيرة ذائع الصيت أو رجل دين ليس له كرش أو قائد سياسي يسير على قدميه في الشوارع من دون ضجيج!

لا يمكن ان نرى ذلك في مثل هذه الأيام فالذي يموت معه الله والذي يولد الله يعينه على هذا الزمن الصعب فالحزن لا يستمر سوى للحظات -سويعات- أيام معدودات!

ذات يوم كنت في الشارقة فأخبرني صديق إماراتي عن وفاة عائلة صديقنا المشترك في بغداد، وإنه جالس في المركز العربي الثقافي يستقبل المعزّين قلت له فلنذهب: قال - اتصلت بالهاتف وانتهى الأمر، علماً أننا لا نبعد عن المركز الثقافي سوى ثلاث دقائق تقطعها سيارته (الهمر)

برمشة عين! وما كان عليّ أن أجادله، لأننا سندخل في أمور السياسة غير المُحبذة!

ذهبت إلى صديقي مشياً على الأقدام، وواسيته ومسحت على حزنه، ونزلت مني دمعة وسط استغراب الجميع.

وأطلقت بعدها للساني حريته كاملة!

قلت: نحن في الوسط تركلنا الأرجل، وتأكلنا المصالح الخاصة والعامة انقلابات يومية تقف وراءها دول الجوار، والدول الإقليمية، والبعيدة والتي في المنتصف ليست لنا مصالح، وغاياتنا اختصرناها إلى أدناه فقط المائة متر التي ندور فيها.. توقف الأولاد عن الدراسة فالذهاب اليومي يعني اللا عودة ظهرا أصبحنا نجازف بفلذات أكبادنا لأسبوع في العام الدراسي حيث تأدية الامتحانات النهائية والعودة إلى المائة متر.

الأحزاب وأعضائها ترتع في جيوبهم الدولارات ونحن تخشى الدنانير من الاقتراب منا!

الحصة التموينية لا تدخل إلى بيوت أعضاء الأحزاب لكنها تهلهل في بطون أطفالنا ونبيع الفائض عن الحاجة لكسوة الصغار من أسمال البالات التي تصدرها لنا بلدان الجوار مع العبوات الناسفة!

ولولا الحصة التموينية لضاعت الأمتار التي تمن علينا بامتلاكها بل هي التي تمتلكنا!

كنا نحسد الذين في العاصمة وحتى الذي ينام على أطرافها الآن لا احد يحسد احد بعد أن رصدت مخابرات العالم أموالها لتمويل فرق الموت!

إنها مؤامرة كبرى لتدمير عاصمة الإمام المهدي حسب نبوءات نوستر اداموس حيث الفلم الذي مولته الدوائر الغربية التي يظهر فيه الإمام المهدي يدير معركته مع العالم الغربي من غرفة عملياته مع كبار جنرالاته على حد تعبير الفلم فتنطلق صواريخه العملاقة من قلب صحراء الحجاز لتدك معاقل الأنظمة الغربية!

كل تلك وهذه الانعكاسات في الغرب لعقيدة الإمام المهدي المنتظر سببتها الثورة الإيرانية، وتلاها المد الشيعي الموالي لإيران والمهدي حيث تأسيس جيش المهدي، وظهور الحركات التي تدعو باسمه ولأجله في منطقة الزركة قريبا من مقابر النجف، وحركة الحوثي في اليمن؟

و كذلك الآف الخبراء والمستشارين المسلمين من كل الطوائف والذين يعملون لصالح الإمبراطورية الجديدة يحذرون من هذا المد الذي سوف يقلب الموازين كلها ويخلف النظام العالمي الجديد بنظام جديد ومختلف!

كل هذه الأسباب جاءت بالاحتلال العالمي الاممي للعراق من اجل تهديم وحرق وتذرية العقول التي من الممكن أن تمهد للنظام العالمي القادم من سراديب الشيعة

الأقرب إلى عقيدة المهدي المنتظر لذلك احرق بريمر منفذ السياسة الأمريكية في العراق كل الأحزاب الإسلامية والعلمانية؟ وورط ثلاثة أرباع الشخصيات التي كانت معروفة بنزاهتها وتدينها ووطنيتها وهاهو يزحف حول الرموز الدينية محاولا تشويه العقائد والأفكار ليقلب الموازين على أصحابها هذه أسباب موت عائلة صديقنا، وهذه هي أسباب ورطتنا باختصار شديد ولقد أضاعت قياداتنا مستقبل الأمة العربية الإسلامية، وماضيها، وحاضرها بل الأمة العراقية إن صح التعبير!

لقد تورطوا ورطة عالمية ودخلوا في حسابات خارج قابلياتهم وبعضهم أصابه (تفريز) مثلما يحدث للكمبيوتر حين يعشعش في خلاياه فايروس جديد!

لا بد من إطفاء عقول القيادات وإشعالها من جديد وهناك الكثير من الإضافات التي دخلت عقولهم بطريق الخطأ، ولا بد أن تمحى!

الورطة التي دخلها ساسة العراق لا يمكن أن يخرج منها احد اللهم إلا الخروج إلى المثوى، والنهاية التي استدرجوا إليها لهي نهاية حمقاء، وعبثا يحاربون بعضهم البعض، ولا حل سوى حبات صغيرة تدخل الجوف آخر الليل!

صفق ضابط شرطة دخل من الباب الخلفي وقال: لقد تورطت ورطة كبيرة وستكون نهايتك على يدي!

تجاهلت كلامه وقلت له بأني كنت احدّث أصدقائي حديثا يخصنا وليس للشرطة شأن به، وأخرجت جوازي الأمريكي وطلبت منه ان يتصل بالسفارة حينها ارتجف فأعدت الجواز إلى مكانه وأضفت باني اعرف أين أضع قدمي وليس لديك ولا الذي اتصل بك أي دليل على كلامي وذلك يقودك إلى المسالة القانونية. .ثم قرأت سورة الفاتحة بصوت مسموع وخرجت مباشرة إلى المطار وسط تأنيب ضميري ويأسي الفائق الوصف!

عدت إلى خرائب الوطن وتكلمت أمام الشرطة ورجال الدين، والميليشيات عن نزوات الملائكة، وأخطاء الآلهة دون أن يعترضني احد لكن حين تكلمت عن آخر فضيحة لأحد قادة الميليشيات توجهت كل البنادق صوب جمجمتي مما أجبرني على الهروب، وفي الباخرة علمت بأنهم قتلوا ثلاثة أرباع عائلتي ونال الربع الباقي عفواً من قائد الميليشيات فحرمت من الوطن مرة ثانية.

الفصل الثاني والعشرون

في الرابعة عصرا استيقظ من قيلولته الطويلة فغسل أيديه، وصب الماء البارد على وجهه بكثافة، ثم غير دشداشته السوداء ولبس بنطال الجينز وقميص النصف كم وصعد إلى أعلى الباخرة التي لم يصعد إلى سقفها احد بعد، فغازلت عيونه خيوط دخان محركاتها التي تصر على نفثه صوب الوطن الملبدة سماؤه بالدخان منذ أكثر من ألف عام!

جلس ويداه في جيوبه، ثم رفع يديه إلى أعلى فوديه، وعصر جمجمته فلم يظهر منها سوى ضجيج الماضي ؛ وصخب الحاضر، وأنين المستقبل، فأخذه خاطره بعيدا، وتدحرجت خواطره على خدوده التي شققها الضياع!

- لا أطفال ينتظرون، ولا زوجة تهندس حاجيات البيت الكثيرة التي أدمنت التبعثر، ولا أصدقاء يكسرون أطواق الوحدة الروحية، ولا صديقات يملكن مفاتيح البيوت، والقلوب، ولا حتى سكائر بعد أن فقدت قدرتها على إخماد حرائق القلب؟

- وقال لنفسه «لا امتلك شيئا سوى هذه الحقيبة التي ملت مني، وكرهت تدحرجها في أشرطة المطارات الحديدية! إلى أين وقلبي نزت إليه أحزان الأهل، وأوجاع الجيران، وتشاؤم المحيط الذي عشت فيه لأربع سنوات كنت قد فرضتها على روحي المغمسة أصلا بالحرمان؟!

إلى أي الدروب انوي بعد أن مللت لندن، وباريس، وبرلين، وطوكيو، ونيودلهي، وتعذبت روحي في دول العالم العربي، والمحيط الشرقي، ولم تهدأ إلا في الوطن الذي يطاردني رجاله الذين عشت معهم سنوات النضال، والمنفى، وتدغمثت معهم في شوارع الوطن المصادرة؟!

الآن أصبحت ثقيلا، وخطرا، وأضحى لساني بذيئا، ولا بد من قطعه!

آه لا تكفي لنفث ما يعتلج في نفسي من لوعات ساهم فيها أصدقائي، ورفاق طريقي، وأبناء بلدي الذين لا يعرفون أبعاد اللعبة، بل الورطة»!

حين صعدت «خولة» إلى أعلى السفينة جلست على اقرب كرسي بعد أن رصدت ذلك الشاب المتشبث بسراب الوطن، والمطارد لدخان الباخرة، والغائص في اللا جدوى!

أشفقت عليه دون أن تميزه، وبكت على شباب الوطن المسافر قسرا إلى فضاءات التيه، وندبت حظها العاثر، ولامت نفسها اللوامة أصلا، ثم رددت أناشيد الحزن

البابلي، لكنها حين لمحت حركات يديه ورأسه، وجذعه المنحنى على بقايا الوطن، أدركت حاجته لشريك، وأحست بما يعاني، فدنت منه محاولة إخراجه من الطوق الذي يفرضه على روحه، ولم يدر في خلدها انه فلاح، ولو كانت لديها أدنى فكرة من كونه مدلل الحزب لزحفت إليه على الرموش!

وحين أمسكت بكتفه أحس بالحياة من جديد تسري في أوداجه، فلف جسده أخيرا ببقايا حنان مطرود من قلب الوطن النابض بالمفخخات، ودون أن يدري خالجه شعور غامض بأنها خولة، لكنه لم يرفع رأسه، ولم يخرج وجهه من تلاصق كفيه، وتمادى في البكاء مما دفعها لضم رأسه المبلول بالعبرات نحو صدرها الممتلئ، فدثرته، وامتص إحزانها، وأوجاعها، وهمومها، وإخفاقاتها، وخيباتها!

وكان يستنشق الهواء المنفوث من أعماقها وكانت تتنفس منه كله عن طريق يديها المشبوكتين، وفمها اللاثم لشعره المتحول إلى البياض برغم سنوات عمره المسفوحة دون الثلاثين!

حاولت النطق بكلمات تجيدها في مثل حالاتها الجديدة، لكن محاولاتها تلبدت بالخيبة!

حاول أن يبوح لها بكل ما تحت القحفة الملثومة، لكن لسانه غفا على لهاته دون إرادته إغفاءة تكاد تكون أبدية!

اذاك هب نسيم ممزوج برطوبة خفيفة لتستيقظ هي أولا منه، ثم ليستيقظ هو منها وسط دهشتها بان يكون هو الذي تود إن تجده وسط يديها!!

الفصل الثالث والعشرون

استغربت خولة من النضج المقتحم عنوة ذهن فلاح، وتعجبت من طريقة تفكيره التي تفوق كل طرق تفكير رجالات الحزب!

كيف وصلت إلى هذا الوعي، ومن كشف لك الطلاسم الأمريكية، والعربية، والفارسية؟!

وكم أحرقت من أعصابك، وسنيّ عمرك القادمة أنت شجاع بامتلاكك لسر العراق الأعظم وشجاع، وبطل لأنك حافظت عليه!

خولة وفلاح الناجيان وحدهما من محرقة الحزب والوطن، وحدهما الواثقان بالوطن وبقدراته على قلب الموازين، فضلاً عن تحمل أعباء القرارات غير الناضجة!

وبينما عيونها تنظر نحو البعيد، أخذت خولة تعزف على عودها الجديد!

- كم عشت في العراق بعد ٩ ابريل ٢٠٠٣ م؟!

- أربع سنوات تقويمية!

- هل وجدت نصفك الضائع؟!

- لم ارتبط رغم وجود الكثيرات المستحقات الارتباط

- هل عشت مع الأهل، وتنعمت بهم، وأفرغت حملك الثقيل بين أيديهم؟!

- بعد أن ابتعدت عن السياسة، والمناصب ابتعدوا عني في شهوري الأولى!

- وبعد ذلك كيف أكملت سنواتك الأربعة؟!

- في الفنادق الرخيصة! ثم استأجرت مشتملاً وأكملت فيه بقية أيامي!

- من كان يزورك من الأخوان في الحزب؟!

- لم يكن للحزب من وجود ملحوظ في مدينتي البعيدة عن الأطماع، لأنها لا تملك سوى التاريخ، والملح!

- ولماذا يطاردونك؟!

- لان كتاباتي لا تنسجم مع خارطة الحزب الجديدة!

- ومن باعتقادك من الأحزاب لم تتغير مبادئه وميوله

- . . . . . !!

أخذهما الحديث إلى أن نبههما الكابتن الذي كان يحرك أقدامه، ويتفقد أوضاع باخرته إلى أن وقت العشاء قد حان، فنزلا يداً بيد مخلفين وراءهما أوجاعا وآلاماً، وكوارث

حزبيه، ووطنية على الكراسي البلاستيكية!!

يداً بيد حتى المطعم!!

قدمها أمامه لتأخذ صينية الطعام، وأخذ عشاءه بعدها ودرجا الى الكراسي الأخيرة يأكلان بهدوء.. ويضحكان من الأعماق، ويتداعبان بواهس لم يدخل عوالمهما من قبل!

كانت تشتهيه، وتود الالتحام به، والعزف على أوتاره كلها، وكانت تملك من الفتنة والجمال ما يحرك القلوب الميتة رغم تكورها بالجلباب، والعباءة، والشيلة، والكفوف!

وكان في سره يحسد أبا آمنة على ذلك الجسم البلوري، والعيون الحالكة السواد، والشفاه المغتصبة لألوان الفراولة!

حينما كانت تأكل كان هو يجد في كل حركة من حركاتها إغراءً لا يمكن الصمود بوجهه!

ابتعدا عن السياسة كثيراً بحديثهما الصامت!

- قرأت في روايتك الأخيرة لومك لأعضاء الحزب المنغمسين في سلوكيات معينة كالمتعة، وامتلاك السيارات الحديثة، والملابس الباريسية الفاخرة!!

- في زمن النضال لا يمكن للسياسي أن ينغمس في ابسط الأشياء!

- والآن بعد أن وصل الحزب إلى السلطة هل باستطاعته فعل ذلك؟!

- مازلنا في مرحلة النضال حتى أن وصلنا إلى السلطة، وهذا هو وقت النضال الحقيقي!

لقد كنا نناضل ضد الديكتاتوريات، ولكن الآن لابد أن نناضل من اجل الشعب وقوته اليومي، وأمانه، ومستقبل أطفاله!

عادا إلى السياسة للمرة الثانية، والثالثة، والرابعة فدوخها بالأوضاع الجديدة لتضع يدها حول رأسها!

- هل أنت بخير يا خولة؟!

- هنا... أشارت إلى جبهتها، وجع يصيبني لأول مرة، ويكاد يمزق أعصابي!

- اتكأت عليه، وسارا صوب حجرتها غير البعيدة عن المطعم!

مددها على السرير بعد أن أزاح عنها العباءة وأخذ يقرأ بعض السور القرآنية، والأدعية الموروثة، فأحست بالشفاء يندلق عليها من بين أصابعه المرتعشة، وأحس هو بنعومة جبهتها، لكن الألم تحول إلى مؤخرة رأسها ليلاحقه بأصابعه المنتشية بعد أن دفع بالشيلة عن شعرها الكستنائي، وأدار أصابعه حول رقبتها كمخلص من ادران مزمنة!

- أنت ساحر يا فلاح.. قالتها بغنج لم يسمع بمثله في حياته!

- أنت. . . . . لم يستطع أن يكمل لان قلبه كاد يطير من صدره قلبت جسدها الوائق من إغراءاته، وبرزت اثداها الممتلئة بالأسرار!

وبخوف ماحق مد يده اليمنى إلى تفاحات آدم الرابضات في جزر، وحدائق خولة اليانعة.

الفصل الرابع والعشرون

حين رست الباخرة في ميناء راشد كانت دبي تتضوع ما كان يتسامى من دلاّتها المطليات بالذهب فاستيقظت خولة الغافية بين أحضان فلاح وتحركت رموشه ليطلقها من حلمه المتسربل من صرائر الماضي. أغمضت عينيه بأناملها الرقيقة وحولت وجهه عنها لتغسل قطاف الليلة الفائتة وبعد ذلك لبست احتشامها وادرات وجهها كيما يغتسل وسط تعليقاته اللاذعة (بعدما كشفنا كل شي ليلاً ها نحن نخجل كما ساسة العراق نهاراً)

في الليل كنا على عقد المتعة والآن انتهى كل شيء، والى الأبد!

ولماذا لايستمر عقدنا أبديا؟!

إنها نزوة يا فلاح!

لم تكن كذلك لأني كنت أشتهيك منذ عشرين عاما.

ودعته وذهبت إلى استعلامات الباخرة لتستلم جوازها وبعد ان سألها عن وجهتها القادمة دخل الى الحمام وهو

يردد: بوخارست.. بوخارست وعلى إيقاعات الماء تبخّرت خوله وعبثاً حاول اللحاق بها!

وأخيرا صحا على نداء أخيه وليد الذي ينتظره عند بوابة القادمين وعلى إطراف عيونه الآف العبرات التي كان يتمني ان يسفحها على أكتاف فلاح الذي لم يكن يعلم بتفاصيل السيارة المفخخة التي التقمت ثلاثة أرباعه عائلته أخذه الى إمارة عجمان حيث يسكن وهناك تركه في شقته بعد ان جلب غداءه وكل ما يحتاجه وذهب لعمله ليتركه فريسة لأوجاعه القديمة والجديدة أكل أولا برغبة عارمة ثم حاول الكتابة ولأنه لا يكتب إلا في السرير غفا بعد تسجيل الحروف الأربعة من موضوعه الكبير ولم يصح إلا في صبيحة اليوم التالي حيث وجد إفطاره لا يزال حارا وورقة مكتوبا عليها اتصل بي لأطمئن عليك لان نومتك الطويلة أقلقتني وفعلا وقبل ان يتناول إفطاره اتصل بأخيه ليمسح خوفه وبعد الإفطار حضر شايه على طريقته الخاصة وسحب قلمه وطوى مخدته ليكمل مشوار الحروف الأربعة متذكرا مسيرة العشرين سنة من الحب الذي إعادته إليه الأخطاء السياسية والوطن المرتجف على صقيع الشتاءات التي لا تنتهي!

كان قد التقاها في احد مؤتمرات المعارضة الكثيرة فبي الخارج وكان حينها صحفيا صغيرا في صحيفة صغيرة يمتلكها زوجها كان ذلك في مطعم الفندق حيث تركها

زوجها تتناول العشاء لوحدها وذهبت في حوار جانبي طال جدا ليجلس فلاح مع خولة الشابة النضرة والفائقة الجمال والعذبة الحديث كان حديثهما حينئذ عن الحب الذي ورطه أخيرا بها وجعله ينتظر لعشرين سنة من اجل قطاف ما زرعه في قلبه!

كانت تشفق عليه في السابق لكنه أشفق عليها آخر المطاف!

كان مهووساً بها أكثر من نصف عمره بيد إنها جُنّت به ما تبقى من عمرها!

ليلة واحدة قلبت حياتها رأسا على عقب وغيّرت خرائطها حتى التي لا يمكن أن تتغير كان يكتب ويعيش الأدوار كلها وكانت هي من تمسك بالقلم أحيانا حين تلتحم بها روحه كتب ثلاثة فصول وهو مدد على السرير عاريا من كل شي وحين تحرك المفتاح بالقفل فر قلبه لكن حين اقترب أخوه انزل رأسه على الورق دون ان يرد السلام ودون أن يعلق على كلمات أخيه مازلت تكتب عاريا لا ادري أي فلسفة تقودك لهذا السلوك الغامض؟!

- . . . . . !

- الساعة العاشرة مساء يا أخي الكبير ولا أجد ما يدل على تناولك الغداء والعشاء!

- . . . . . !

ارتدى دشداشته السوداء التي خلصته من موت محتوم دون ان يلبس تحتها ملابس داخلية وذهب الى الحمام ليبقى ساعة كاملة وسط استغراب أخيه وأصدقائه المنتظرين كيما يذهب معهم لتناول العشاء في المطعم العراقي في الشارقة وحين خرج مكورا المنشفة على رأسه سلم عليهم واعتذر عن الذهاب معهم حين بادره وليد متحججا بالكتابة وحتى لا تهرب أفكاره و. . . و. . .

وما كان من أخيه إلا ان يذهب بمفرده لجلب العشاء إلى الشقة بعد ان قام قبلها بالاتصال بكل أصدقائه ليخرجه من ورطة المأساة التي تفركه وسط يديها الضخمتين! أما خولة فكانت تواصل السيناريو نفسه في فندق متواضع في ديرة دبي ولم تخرج من الفندق لثلاثة أيام كاملة نادمة على تفريطها بفلاح الذي لن تجد احن منه ولا أشجع ولا أنبل و. . و. .

بكت لأنها أضاعت فرصتها الأخيرة في تمضية أيامها القادمات بسلام لكنه ضاع والى الأبد، وهي استمرت في تتبعها لخيوطها المتهرئة بلا أمل في قادم الأيام!

الفصل الخامس والعشرون

قد تكون فرصتها الأخيرة!

وقد يمكن اللحاق بها!

وقد تنتظم أيامها القادمات!

وقد. . .

وقد. . . !!

جبال من الممكنات، والمستحيلات حالت بينها وبين باب غرفتها في فندق كارون في دبي وسط دهشة، واستغراب عمال الفندق الخائبين أمام بوابتها العتيدة.

كانت تأكل، بل تتفوت من بقايا أكياس سمرقند الملونة، وتتأمل من عيون فلاح الصغيرة، وتغفو على أوجاع الوطن المؤلمة!

ثلاثة أيام دونه!

وثلاثة أيام فيه!

وثلاثة أيام منه!

إلى اين سار؟!

ومتى سيصل..؟! والى أين تسير هي، ومتى ستصل؟!
وهل وصل قبله احد؟! وهل وصلت قبلها واحدة؟!

زحفت التساؤلات إلى مقدمة رأسها بينما أياديها تسحب حقائبها، والباب، وبقايا الوطن.

وبصمت وقفت أمام موظف استقبال الفندق فدفعت الفاتورة وأخذت جوازها. ومباشرة رفعت يدها اليسرى لأول سيارة أجرة اقتربت منها.. ونطق لسانها أخيرا بكلمه واحدة.. ((airport)) وهذا يعني بوابة المغادرين.. وهناك وحّدت حقائبها وحداها أمل أخير بتوحد الأحزاب والحركات بحقيبة واحدة أيضا كيما تسهل العملية على سكرتيرة الخارجية الأمريكية.

وفي غضون ساعات جلست على أحد مقاعد الدرجة الأولى على متن الطائرة الإماراتية، ثم أغفت بعد ان حوّلت لها المضيفة المقعد إلى سرير، وبعد وقت لم تلتفت إليه صحت لتطلب فنجاناً من القهوة.. ثم رفضت بإشارة من سبابتها العرض المقدم من المضيفة بجلب وجبة الغداء، وعادت إلى الوطن الذي فرط بها. ودحرجها خلف أسواره عادت إليه كما في السابق تبحث عنه بين أخاديد عقلها التائه.

إشارة ربط الأحزمة أذنت للهبوط التدريجي في مطار بوخارست.. كان الجو بارداً فتدثرت بأوهامها. ووضعت على رأسها كل ما تضعه شخصيات الوطن الجديد!

الفصل السادس والعشرون

بعد أن يأس، وبعد ان اقنع نفسه بالتوقف قرر العودة إلى أمريكا لكن إلى الاباما هذه المرة وعن قناعة تامة.. فوضع حقائبه كلها في حقيبة واحدة.. حاول ان تكون صغيرة.. أودعها لدى (وليد) أمين إسراره، وملاذه الأخير، طالباً منه عدم فتحها إلا عند الضرورة القصوى!

ثم ذهب إلى سوق نايف في دبي ليشتري ملابس وحاجيات الرحيل الأخير!

دس في حقيبته الكبيرة احتياجات أعوام، ولم يأخذ رأي أخيه، ولم يتكلم معه، لكن أخاه كان يسجل لحظاته الأخيرة من خلال هاتفه النقال صوته، مشيته، وكان حدسه قوياً بان هناك من يراقبه فلم يتكلم مع عمال، وأصحاب المحلات إلا العربية الفصحى، وأخيرا عاد إلى عجمان وقبل ان يخلد للنوم طلب من وليد ان لا يذهب للعمل غداً حتى يوصله الى المطار!

وفعلاً اتصل (وليد) بمديره وأخذ إذنا منه وصباحاً ودون ان يفطر او يحتسي حتى رشفة شاي جمع أغراضه في الحقيبة الكبيرة، وبين يديه أوراق عليها آثار سكائر، وشاي، ودموع وعند بوابة العمارة التي يسكن فيها (وليد) غير رأيه وطلب منه ان يلحق بعمله لكونه يريد السفر وحيداً!

رفع يده اليسرى لأول سيارة أجرة.. وحين فتح الباب قال للسائق (airport). كان السائق نفسه الذي نقل خولة من فندق كارون إلى مطار دبي، وحصل على زبون ينقله الى عجمان، وحين عودته تزامن مع وقوف فلاح الذي أعاد سيمفونية اليأس على ذات المقعد، من دون ان يلوّح لأخيه، ودون أن يقبّله حتى ذاب في دوامته الحديدة!

وعلى المكان نفسه وقفت التاكسي، بالعربة نفسها نقل حقيبته، وعلى الأرض نفسها خطت أقدامه، ومن الهواء نفسه تنفس، وعلى البوابة ذاتها وقف.. ونفسها مدققة الجوازات دققت جوازه.. وذات موظفه الكاونتر حجزت له مقعداً على متن الطائرة الإماراتية.. لكن على مقاعد الطائرة المغادرة في الوقت نفسه إلى ولاية ألاباما الامريكيه ولكن، البوابات أيضا اختلفت، فخولة ذهبت إلى البوابة رقم (B16) وهو إلى البوابة رقم (A2)!

وهي كانت على الدرجة الأولى لكنه على الدرجة السياحية، وهي استقبلتها ابنتها سفيرة العراق في رومانيا..

لكنه لم يستقبله سوى رجال (CIA) الذين أخذوه مباشره إلى التحقيق!

وبالأدلة السرية أمضى خمس سنوات في معتقل غوانتنامو!!.

يوم أذاعت الفضائيات العالمية والعربية خبر اعتقال الروائي العراقي فلاح حسن سلطان بتهمه التخطيط لهجمات إرهابية ضد الولايات المتحدة بكت عيون كثيرة كان أصحابها قد عرفوه عن كثب، ونزفت قلوب عديدة كانت تعرف ما يدور في عقله اليقظ، وحزنت أمه أخيراً واكتشفت عائلته أخيرا بأنه متهم بالتورط في مخططات عالمية وسيذوي بعيداً وهو يقضي بقية عمره في معتقل غوانتانامو!

كانت أوراق براءته في الحقيبة التي خلّفها عند أخيه الذي أراد الذهاب إلى السفارة الأمريكية في الإمارات لكنه خاف عليه، وحاول أن يفتح الحقيبة لكنه ارتجف احتراما لذلك الكائن الغامض الذي ينوء كاهله بهموم العالم، ودون ان يتدخل رفاقه القدماء الذي كان بمقدورهم تبرئته وإنقاذه من تلكم الورطة!

ودون ان تتدخل خولة بعد التهديدات التي وصلت إليها من مختلف الجهات والاتجاهات!

ودونما محاكمة، أمضى فلاح السنوات الخمس في ذلك المعتقل النائي محاولا في خلالها الحفاظ على خيوط روايته

المصادرة من قبل رجال CIA ولخمس سنوات قاسية كان فيها مكتوف الأيدي والأرجل وكان يهمهم بكلمات لا يدركها حراسه!

خمس سنوات كادت تمسح بقايا الوطن من ذاكرته!

خمس سنوات أكلت روحه الطرية، ودون أن يدري ماتت أمه، ووجدت خولة مقتولة في شقتها في بوخارست وقد وجهت ابنتها التي أدركت الحقيقية أخيرا أصابع الاتهام إلى والدها رئيس الوزراء لكن مصالح رومانيا في العراق أغلقت القضية وقيدتها ضد مجهول!

وقتل المترجم علي السيد هاشم اثر تفخيخ سيارته فماتت معه أسرار جزار كمبوديا وفضائح المنطقة الملونة!

حاجياته وعقاراته وما كان يملك اكتشفها توأمه نجاح الذي لم يرحل مع الثلاثة أرباع فزوّر العقود وباعاها من اجل مراسيم مجلس عزاء أمه كما كان يدعي!

والانتخابات الأخيرة أوصلت رجال الاحتلال الذائبين في بوتقة المصالح الشخصية إلى دكة الحكم وأخرجت الإسلاميين جميعا من الحكومة وحتى البرلمان بذل - بعد أن أفشلت سياسة القطب الواحد - جُلّ جهوده من أجل إنقاذ الوطن الراكس في مستنقع المصالح وخرجت قوات الاحتلال بعد أن أعادت الخدمات التي عطلتها عن الشعب لعشر سنوات لكنها أبقت على نصف قواتها في ثلاثة قواعد

عسكرية ثابتة لا يخرج منها جنودها أبدا قاعدة بلد في الشمال وقاعدة الحبانية في الغرب وقاعدة الإمام علي في الجنوب ثم اخفت مظاهر الاحتلال ورفعت الحواجز الكونكريتية وأدخلت شركات الأعمار الأجنبية، والعربية، ودفعت أموالا فوق المعتاد لكسب ود الشعب الجائع، المتعب ثم طلبت من ممثل مصالحها الجديد عدم المساس بمشاعر وعقائد الشعب كان ذلك في العام ٢٠١٣ ميلادي حين خرج من غوانتانامو بعد قرار إغلاقه نهائيا وإطلاق سراح نزلائه ولأنه أمريكي الجنسية عاد إلى الاباما التي يحلم بالعودة إليها لأن ابا صالح صديقه اليمني انتقل أليها وافتتح خمسة مطاعم يمنية نجحت نجاحا باهراً وهو محتفظ بشوقه كاملا لفلاح صديقه الذي لن ينساه!

حين وصل إلى الاباما أدخلته الحكومة إلى مدرسة إصلاحية لفترة ستة أشهر تخرّج منها مؤدبا جداً، وهاضما للقانون ورافضاً للسياسة!

بعدها التقى مجددا بابي صالح وعمل معه وكسب أموالا كثيرة حتى عام ٢٠٢٢ ميلاديا حين توفي أبو صالح فحزن عليه وجزعت روحه فانزوى في بيته الريفي!

وعن طريق السفارة الأمريكية حصل أخوه وليد الذي عاد من الإمارات ليعمل في شركة إماراتية في حقل أعمار بغداد وهناك ذهب ليسال عن عنوان فلاح او للحصول على

أية معلومة توصله إلى قبره أن كان قد توفي وفعلا حصل على عنوان بيته الريفي الذي لازم الجلوس فيه وحيدا بعد ان ترك العمل في مطاعم (أبو صالح)!

فرح أولا لأنه وجد فلاح ما يزال على قيد الحياة.

وفرح لكون أخيه ترك السياسة، واستقر في حياته، ولم تظهر عليه أية دلائل تشي باقترابه من دهاليزها طوال تلك الحقبة فأراد أن يفرحه ويظهر له مدى أمانته وثقته بان أرسل إليه تلك الحقيبة التي أودعها لديه، وكان يتمنى ان يراه وهو يتسلم الأمانة، ويراقب عيونه، ويشاهد مشاهد احتفاله، لكنه بهت حين بثت الفضائيات خبر جنون الروائي الأمريكي من أصل عراقي دون معرفة الأسباب، وحاول الانتحار بإحراقه بيته وهو بداخله لكن اقرب جيرانه في الريف شاهد لهيب النار فأبلغ قوات الإطفاء والشرطة التي حضرت في الوقت المناسب لتنقذه هو وتترك البيت بما فيه من أسرار فريسة لألسنة اللهب، والآن يعيش في مصحة مدينة برمنغهام شمال الاباما فاقداً لكل عقله مع المئات من العراقيين الذين ذهبت عقولهم نتيجة لهزّات الفرح العاصفة وصدمات الحزن المفاجئة!

الإمارات- الكويت- الأردن- اليابان- قطر - الهند -العراق -
بين حدودها كتبت هذه الرواية